مَلاذ

اسـم الكتـــاب: مــــــــــــــــــــــــلاذ

التـأليـــــــــف: داليـــــــــا صـــــــقر

نــــوع العمـــــل: روايـــــــــــــــــــة

مراجعـة وإخـراج فنـي: سـالم عبـد المعـز (عمـرو سـواح)

رقـــم الإيــــداع: 2021 / 3675

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-236-8

النـــــــــــاشر: دار زحمة كتاب ودار بوك جارد

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

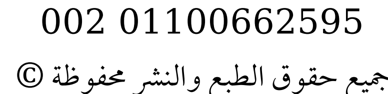
دار زحمة كتاب للنشر Facebook

Email za7ma-kotab@hotmail.com

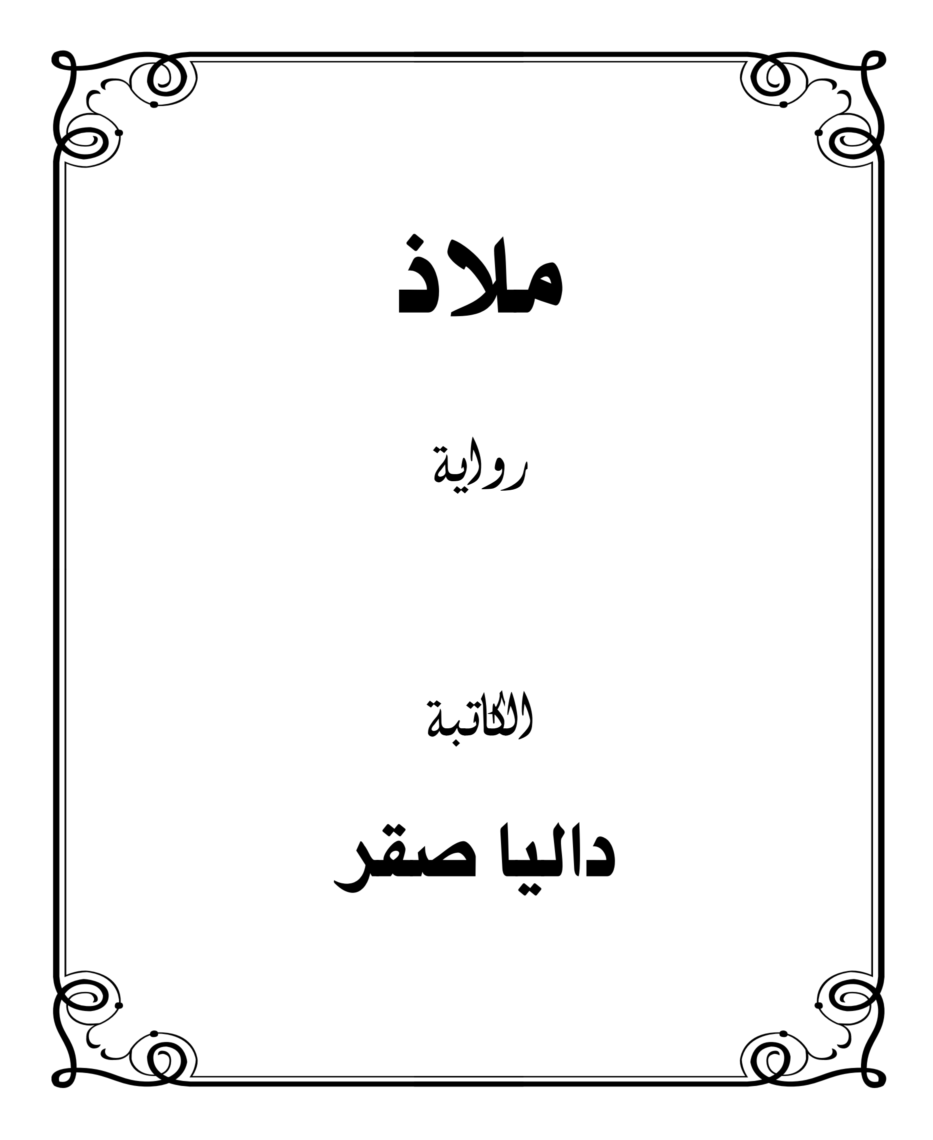
bookguard.publishing@gmail.com

Tel  002 01205100596

002 01100662595







ملاذ

رواية

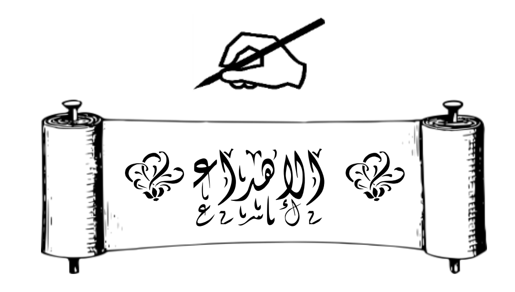
الكاتبة

داليا صقر

"لكل شخصٍ ملاذٌ خاص به.. مكان، شخص، غُرفة، موسيقى، لكن ماذا لو كان ذلك الملاذ مجرد وهمٍ من البداية؟!

اجلب سماعتك، قلل الإضاءة، واستمع لكل موسيقى تُصاحب تلك الكلمات، عسى أن تنفصل روحك وتجد ملاذها الخاص هنا..

ما أنت على وشك قراءته مُجرد ذِكرى لاسمي".



إلى الأسباب الحقيقية خلف تلك الكلمات.

إلى والدي داعمي الأول في كتابة تلك الكلمات.

إلى روح جدي الراحل "محمد هاشم" لا أتحدث عنك
كثيرًا لكن ذلك الإهداء تخليدٌ لذِكراك داخلي.



مُقَدِّمَة

تلك الكلمات ما هي إلا تعبيرٌ عن مدى الأذى النفسي الذي قد تصل إليه بعض الأرواح بسبب بشرٍ تُشبه قلوبهم الحجارة أو أشد قسوة.

لم يمر على وجودي في هذا العالم الكثير من الوقت كما غيري، لكن عند تجمُّع بعض العقبات معًا تُعلم الإنسان كيفية السير والاستمرارية دون الحاجة لملء ذلك الفراغ الموجود في منتصف صدرك.. أُخذ قلبك وكل ما يدُب الحياة داخلك واختفى الجاني مع الريـح.

ليس البشر والحياة فقط اللذان جعلاني عاجزًا عن العيش! بل كان "للوقت" دورٌ كبيرٌ في ذلك

فدائمًا ما يأتي الاعتذار مُتأخرًا

دائمًا ما يصل ما تريد بعد فوات الأوان

دائمًا ما تكون مُتأخرًا عن الشعور بمذاق الأشياء في وقتها.

لا أعلم إذا كان العيب فيّ، أم في سائر الأشياء حولي!

لكني أعلم أنني لم أستحق كل ذلك، لم أكن بذلك السوء حتى يُسرق مني عُمري وأنا تائه داخل دوامة مُتكررة من الألم المستمر.

*****

(١)

تلك الروايات ليست إلا بدايات

لنهايات محتومة.

حسن

أخبرني أحدهم يومًا: "أخرج كلماتك للعالم"، لم أهتم وقتها، فلقد كنت من النوع الذي يُفضل مشاركة تفاصيل الحياة مع أشخاصٍ محدودين، لكن للوقت قدرة غريبة في تغيير كل شيء فها أنا الآن أكتب تلك الكلمات لتخرج للعالم.

تلك الكلمات ما هي إلا يوميات شخص يتآكل كل شيء بداخله بفعل الحزن، أتمنى عندما تصل إليك تلك الكلمات أن تَعيَ تمامًا ما تحويه من معنى!

****

كان إتمامي لعامي السادس والعشرين بداية قصتي، فكنت أحظى بحياةٍ هادئةٍ بسيطةٍ قبل ذهاب مَن له الفضل الكبير في ما أنا عليه الآن..

أحمد.. هو الشخص الذي ساعدني لأخطو أولى خطواتي، ولأتحدث بأولى كلماتي، هو الشخص الذي شهد على مرور سنوات عُمري عامًا بعد الآخر، كان كَعمودٍ فقري آخر يصلب ظهري جاعلًا رأسي شامخًا دائمًا، تكفل بتربيتي ودراستي حتى أصبحت خريج كلية هندسة جامعة الإسكندرية..

كان دائمًا معي، كان رفيقي قبل كل شيء.

تُوفيت والدتي بعد ولادتي مباشرةً، وتوفي والدي بعدها بعدة أشهر حُزنًا عليها، هذا كان دائمًا ما أتلاقاه ردًّا من أحمد في كل مرة أسأله فيها عنهما، فقد كان صديقهما منذ زمنٍ حتى عند مَمات أبي ترك وصايتي له بسبب شدة الترابط بينهما.

أخبرني أيضًا أن والدتي تركت لي قبل وفاتها هديةً صغيرةً سأحصل عليها عند إتمامي لعامي السادس والعشرين، كنت أنتظر ذلك اليوم عامًا بعد عامٍ مُتشوقًا لمعرفة ماذا تركت لي أمي حتى قبل ميلادي!!

****

الأول من يوليو

كانت الشمس ساطعة في السماء، لكن لم أكن أستطيع تمييز الألوان عن بعضها، هل ذلك بسبب أن الأجواء هنا تتكون من ألوانٍ متعددة، أم هل غطى الحُزن على عيني فلم أعد أُميز الألوان؟!

من بضع ساعات وضعت تحت قدمي جُثمان أحمد، احتل المرض جسده كما يحتلني الحزن الآن.

كان فُراقك احتمالًا غير متوقع وغير قابل للتفكير، اعتقدت أنك دائم دوام دوران عقارب الساعة، لم أكن أعلم أن كسرة قلبي وسقوطي أرضًا ستكون أنت المتسبب بها، أحببتك كما لم أُحب أحدًا من قبل، أحببتك أكثر من والديّ اللذين كنت

أتمنى رؤيتهما في كل دقيقة من حياتي، كنت تمثل كل شيء في حياتي، والآن أصبحت حياتي لا شيء.

لم تكن تلك ذِكرى حضوري لهذا العالم السادسة والعشرين بل ستكون من الآن ذِكرى لمغادرتك له، وكأن انتظاري لذلك اليوم كل يوم من عمري كانتظاري لوفاتك.

لم أعِ كم من الوقت ظللتُ ثابتًا في مكاني منتظرًا معجزة من السماء أن يكون كل ذلك مجرد كابوس، وعندما أعود للمنزل أجدك تنتظرني كعادتك توبخني على تأخيري، لكني حقًّا لم أتأخر هذه المرة فلا زالت الشمس لم تودع السماء بعد، لعل ذهابي مُبكرًا اليوم يوقظك من سباتك الأبدي! أعتذر لك على معاناتك معي طول سنين عمري! أعتذر لأني لم أخبرك يومًا أنني حقًّا أُحبك.

توقفتُ عن التفكير، توقفت عن ذرف الدموع كمن فقد الطاقة حتى للحزن.

سحبتني قدماي لمنزلٍ أصبح مهجورًا اليوم بعد غيابك، غطى الظلام كل شيء وغطى الألم على قلبي، سقطت على فراشك كطفل ينتظر أمان والده ليحتويه، غرقت في نومي وغصات ألم الفراق كلعنة من لعنات الزمن التي لن تفارقني.

* * * *

الثامن والعشرون من ديسمبر

كانت أشد أيام ديسمبر برودة حيث كانت تصل البرودة لكل مكان، حتى لمنتصف قلبي، جعلته يتجمد من شدة بشاعة المشاعر داخله، فَقدت الإحساس بكل شيء، كمن جُمدت جميع وظائفه المعنوية.. الكثير من الفراغ، والمزيد منه في كل مكان أذهب إليه، لا يوجد ونس لي سوى أمواج البحر الهائجة غضبًا من عدم قدرتها على إخراج ما في باطنها من أحاديث.

أُمسك في يدي تلك اليوميات العائدة لأمي قبل وفاتها، التي أهداني إياها أحمد قبل ذهابه، لم أستطع قراءتها وتناسيتُها حتى اليوم..

"اوعدني يا حسن.. اوعدني إنك مش هتنساها!"

كانت تلك آخر كلماته قبل تركه لي، اشتقت لك! لم يعُد لي أحد لألجأ إليه من بعدك!

♫ كنت فاكر لسَّا بدري ♫

♫ وأتاري العمر بيجري ♫

♫ الفراق بييجي من غير معاد ♫

♫ يعلم جوانا يكتب نهايات ♫

♫ شايفك قدامي وما بينا فاصل ♫

♫ بشكيلك وكلامي مش واصل ♫

كنت فاكر، كايروكي.

أعتقد أنه حان الوقت حتى أعلم ما تُخبئه تلك الكلمات التي كُتم عليها كل تلك السنين.

شمس

إنه أول أيام دروسي الخصوصية في أول أيام الثانوية، أشعر بالملل والإرهاق، فَبداية مرحلة جديدة من حياتي ما هي إلا بداية معاناة جديدة بآلامٍ مختلفة، لم تكن حياتي من يوم مولدي بحياة بسيطة، فكلما أتذكر أعوامي الماضية أجد الكثير من الأحداث لأرويها بالنسبة لفتاةٍ في الخامسة عشر من عمرها، وعندما أتأمل في حياة من حولي كنت أعلم أن حياتي القادمة لن تكون هادئة.

كان اليوم شديد الحرارة فتلك عادة أغسطس هو والشمس صديقان لا يفارقان بعضهما إلا بضع ساعات في الليل، لتعود من جديد لإزعاجي بتلك الحرارة المُنفرة على عكس أيام ديسمبر ويناير، وتلك البرودة المحببة للقلب.. قيل لي إن الأسماء تعكس شخصيات أصحابها، لكن اسم شمس لا يتوافق مع شخصيتي أبدًا، فأنا أنجذب إلى كل ما هو خالٍ من الحرارة ويمتلئ بالبرودة، إذا كان ذلك في اختيار الألوان مثل الأبيض والرمادي أو شخصيتي التي يغلب عليها البرود وعدم المبالاة، وحبي غير المبرر لِلَّيل ونسمات هوائه، وأشد أيام السنة برودة.

ليس لدي الكثير من الأصدقاء، لكن لدي رفيقات لهن نفس طريقي للعودة للمنزل حيث إنني لا أتسم بالتوافق السريع مع الأشخاص الغريبة عني، عادةً ما يأخذ مني الأمر القليل من الوقت للانفتاح بشخصيتي الحقيقية لأحدٍ ما.. لم تكن من عاداتي أن أهاب مرور الطريق السريع، لكن حدث كل شيء بسرعَة رمشة العين، صرخات رفيقاتي، وصوت كابح لسيارة غطى عليه صوت نوع من الموسيقى المزعجة الخارجة منها، لم أكد أعي ما حدث للحظات كأن الوقت توقف في تلك اللحظة.

"أنتِ كويسة يا شمس؟"

أعتقد! لا أعلم! صُلب جسدي في الأرض لم يكن يفصلني إلا بضعة سنتيمترات عن فقد ما تبقى من عمري.. رفعت نظري لا إراديًا إلى تلك الأعين المنتشية المُتألمة، كانتا عينين يغلب عليهما لون الجبال، يمتلك صاحبهما ذلك الجسد النحيل طويل القامة عريض الكتفين، لكن تلك الأعين أذهبت عقلي وانفصلت من واقعي لعالمه، شعرت أنني أعرفه، وأنها ليست المرة الأولى التي أنظر فيها إلى تلك الأعين.

صرخات صديقه، أو لا أعلم ماهيته له، القابع في الجهة الأخرى من السيارة، السائق الذي كان على وشك المرور فوق جسدي بسيارته المُهشم نصفها وقيادته بهذه السرعة الجنونية وهو غارق في انتشائه بمُخدِّرات أفقدته عقله وكذلك

توازنه، صرخاته بألفاظ نائية تشبهه هي ما جعلتني أفيق من انفصالي، يصرخ مُدعيًا أنني المُخطئة!!

ثار غضبي وارتفع إلى حيث لا أستطيع كبحه من الخروج، لم أعِ بما فعلتُ حتى سمعت انكسار زجاج سيارته اصطحب ذلك صمت عمّ المكان بعدما كان الضجيج لا يهدأ.

لَملمت أغراضي المُبعثرة أرضًا بعشوائية في هدوء وثبات لا أعلم كيف اصطنعتهما، لأتحرك مُكملة طريقي كأن شيئًا لم يكن، شعرت بأعينه تُلاحقني، شعرت برغبةٍ مُستميتة في النظر إلى تلك الأعين لمرة أخيرة..

التفت لأنظر بما يكفي رغبتي، تساءلت قبل النظر أمامي مرة أُخرى: "ماذا فعل بِك البشر ليظهر الألم في عينيك كشعاع شمس عاجزًا عن إخفائه؟"

أكملت طريقي ولا أعلم ما يخفيه القدر لي! ولا أعلم هل سنتلاقى مرة أخرى!

أتمنى ذلك، أتمنى ذلك بكل ما بداخلي!

****

يوسف

أسمع تلك الابتهالات التي تسبق صلاة الفجر، لم أعتَدْ أن أكون في وعيي في ذلك الوقت حتى أسمعها، في الأغلب أكون منتشيًا حتى تختنق أنفاسي داخل حلقي، لكن اليوم كان يجب أن أكون في كامل وعيي فتلك المشاكل التي يُسبِّبها أخي "علي" لا تنتهي، وعيت في تلك الحياة عليه، فلقد توفيت والدتي في صغري حتى إنني لا أتذكر ملامحها، وأبي سكير لا أتذكر أيضًا رؤيته يومًا واعيًا بنفسه، لم يكن لدي سوى أخي، يكبرني بسبع سنوات فأخذني معه في طريقه، علمني كل ما يعرفه عن الجرائم من سرقةٍ لقتلٍ، والمُخدرات والخَمر، علمني كل ما هو خاطئ، مخالف للقانون والأخلاق، وإذا سُمح مخالف للأدمية أيضًا، جعلني أجرب كل شيء، ومع الوقت أصبحت مجرد نسخة مصغرة منه في جميع أعماله القذرة.

كان يسحبني معه في كل مكان وكل مرة يذهب فيها لحل إحدى مشاكله، كان دائمًا ما يخبرني بتلك الكلمات التي لم أصدقها يومًا "لازم تحارب علشان تعيش!"، ولكن لماذا؟ لماذا يجب أن أحارب من أجل حياة هي في الأصل ملكي؟! لمَ يجب أن أُصيب غيري بالأذى حتى لا أتأذى أنا؟ فليسر كلّ منا في طريقه!!

لن أنكر كنت أستمتع وأنا أُخطئ، كنت أستمتع عندما أرى دماء أحدهم تُغطي يدي ونظرات الألم والفزع تحتل عينيه، كنت أستمتع عند وصولي لنشوتي بعد كل جرعة مُخدرات، كنت أستمتع..

لا أعلم متى ظهر شخصٌ آخر داخلي يتحدث ليجعلني أشعر بالسوء في كل مرة أُخطئ فيها، لكني كالعادة أتجاهله وأقنع نفسي أنها مجرد آثار جانبية لما أتعاطى، لكن ذلك لم يمنعني في بعض الأوقات عندما أختلي بنفسي أن أفكر ماذا لو توقفت واستمعت حقًّا لذلك الشخص داخلي؟

في غمضة عين بدأت "الحرب" كما يسميها أخي، فلم أتردد للحظات في الاشتباك معهم، فلم يحدث لي شيء سيئ من قبل، قليل من الجروح السطحية بعض منها يترك علامات بارزة في جسدي لعدم اهتمامي بمعالجتها بطريقة صحيحة، لكنني أعلم أنني لن أسلم في كل مرة حيث إنني شعرت بانشقاق في أسفل معدتي!

تجمدت مكاني وتوقف عقلي للحظات عن الاستيعاب، سرعان ما تسربت الدماء فارةً للخارج وبدأت في إغراق يدي، حاولت منعها من الهروب خارج جسدي لكن كان الجرح أكبر من أن أتحكم به بتلك البساطة، فقدت توازني وأصبحت أرى كل شيء بصورة مشوشة.

سقطت أرضًا محاولًا جاهدًا مناداة أخي لكن صوتي لا يخرج! شعرت بشلل تام في عضلاتي من شدة الألم، ثقلت جفوني وأصبح كل شيء ضبابي.

سمعت صوت أخي يصرخ مناديًا باسمي، سمعت أيضًا صوت أحدهم يرفع الأذان مناديًا للصلاة..

سمعت أو لعلّي شعرت أن الله يُناديني إليه.

❋❋❋❋

استيقظت من شدة الألم الذي يحتل نصف جسدي، أشعر كأنني غفوت لأيام لكن ما هي إلا بضع ساعات طويلة، كان الوقت ما بعد الظهيرة عندما دخل أخي غرفتي يدور حلو نفسه ويلعن من أصابني بذلك الجرح ويتوعد له بأشد عقاب الذي قد يؤدي إلى إنهاء حياته.

نظرت إلى مكان الجرح لأجد الكثير من الشاش يحاوط مكانه..

"حد خيط لي الجرح ده؟".

بينما كان يدور حول نفسه بشكل عشوائي.. وجهت سؤالي له.

"لو كان إتخيط لك جرح قبل كدا كان زمان جسمك مليان علامات بالشكل ده؟!!".

ثبت مكانه ليكمل كلماته..

" خُد الحاجات دي الكام يوم الجايين علشان ما تحسش بوجع، والجرح هيلم والدنيا هتنسيك وجعه".

مد يده ليضع الكثير من المُخدرات المُغيبة للعقل على السرير بجواري فهذه هي الطريقة التي نعالج بها جروحنا، كثير من البُن ليتوقف النزيف، كثير من القطن، كثير من الشاش، وكثير من المخدرات.. انتشِ حتى تفقد الإحساس بالألم وبجسدك، وحتى تفقد في كل مرة جزءًا من آدميتك.

جاء في اعتقادي يومًا أننا قد نتحول لوحوش ونبني مُستعمرة كاملة تضُم من يُشبهنا، ليأكل بعضنا الآخر ونتحول من بشر لنوع أسوأ من الحيوانات، لا يفكر، لا يشعر، فقط يحارب ليعيش!

أخذني أخي ليخرجني من غرفتي أو عالمي كما يصفه، مُعلِّلًا أن هناك سحابة حُزن تطفو داخلها، ولا يريدني أن أتعرض لأمطارها لكي لا أُصاب بلعنة حُزنها، لكنه لا يعلم أن تلك السحابة تُطفو فوقي دائمًا.

****

تودع الشمس السماء كل يوم بطريقةٍ لم تعجز يومًا عن إبهاري، دائمًا ما أغرق في سحرها الخاطف، ولا أعلم سبب انجذابي الشديد لذلك الوقت من اليوم.

كانت الموسيقى صاخبة، والدخان يملأ السيارة، كانت السرعة جنونية، كان الوضع فَوضَويّ، لكني اعتدت عليه، واعتدت على أخي وأصدقائه الذين أصبحوا مع الوقت أصدقائي، اعتدت أن يكون كل شيء فَوضَويًّا، صاخبًا، خاطئًا.. **حتى رأيتها.**

توقفت السيارة فجأة أمام جسدها الهزيل، صغيرة الحجم، لها شَعر بني فاتح طويل، كانت تمتزج الألوان داخل عينيها عجزت عن تحديد لونها الفعلي لكنها سحرتني بجمالها!!

ظللت أنظر إليها للحظات ربما لدقائق، كان هناك شيءٌ غريبٌ فيها جعلني أشعر كأنني أفيق من انتشائي! لا أستطيع إبعاد أنظاري عنها، كانت تسحبني إليها، بدأت أشعر بالألم من جديد ويزداد كلما زاد وقت نظري إليها، كيف أعود إلى وعيي بعد تلك الكميات الهائلة من المخدر بمجرد النظر إليها!!

أبعدت نظرها عني عندما وقع على مسامعها سُباب أخي المُتناثر من فمه البذيء، لأراها تتحرك بسرعة وعصبية لتُلقي بحجرٍ كبيرٍ على زجاج السيارة ليتهشم تمامًا..

سُرعان ما هدأت أنفاسها الحارة لتجمع ما تبعثر منها أرضًا لأظل أُتابعها مُبتعدة في طريقها راجيًا أن تلتفت إليّ مرة أخيرة!

التفتت.. لتسقط أشعة الشمس على عينيها لتزيد من سحر جمالها! وتتخلل سلاسل الشمس الذهبية خُصلات شعرها الطويل المُتطاير على وجهها.

انحبست أنفاسي، وازداد الألم حتى زُورته، واختفت عن أنظاري وتركتني مُبعثرًا!

أكملت طريقي ولا أعلم ما يخفيه القدر لي! ولا أعلم هل سنتلاقى مرة أخرى!

أتمنى ذلك، أتمنى ذلك بكل ما بداخلي!

*****

حسن

مئتان ورقة وازدادوا تسعة لخصتْ فيها يد أمي كل ما رأته عيناها وشعر به قلبها على مدار سنين عمرها القصير!

كان الأمر أقسى عليّ من أن أتخطاه وحدي، حاولت مقابلة أصدقائي، حاولت التحدث وإخبارهم عن مدى السوء الذي أشعر به تجاه أمي التي لم أرَها من قبل! لكنني لم أستطع التكلم، شعرت أنني لن أُفهم، كمن كتبت تلك الكلمات حتى لا تلمس قلب أحدٍ غيري!

"حالتك بقت صعبة قوي يا حسن، ما تشوفلك دكتور!.. لا بتتلكم ولا حد بيشوفك حتى لما كلمتني ننزل ما تكلمتش كلمتين على بعض! لو فضلت على الحال دا أنت كدا هتخسر كل اللي باقي لك إذا كان شغل أو ناس.. يمكن الحالة دي دلوقت غصب عنك بس تقدر تطلع نفسك منها لأن كل ما هتسيب نفسك ليها كل ما هتسيطر عليك أكتر ومش هتقدر تعمل أي حاجة بعد كده!"

تحدث رفيق الصِّغر كمن سئِم مني! أحسست بثقل وجودي في حياته لكنه على حق، يجب عليّ البحث عن شخص ما أستطيع التحدث معه، أو يستطيع فهم ما أريد إزاحته عن صدري!

عندما قرأت قائمة أسماء الأطباء النفسيين الذين رشحهم لي رفيقي لفت انتباهي اسم أحدهم "قُصي الدين" أعجبني وقع اسمه على مسامعي فقررت الذهاب إليه..

لم تمر دقائق على إخباري لرفيقي باختياري إلا ووجدت منه رسالة تحوي العنوان وموعد زيارتي!

❃❃❃❃

الرابع عشر من يناير

استقبلتني فتاة بوجه بشوش كانت في غاية الجمال، كانت تسرق الأنظار كقمر ساطع يعجز المرء عن تجاهله..

"أستاذ حسن؟"

أومأتُ برأسي في صمت تائهًا في تلك الابتسامة، شعرت كمن عادت له روحه بعد غياب طويل!

"اتفضل الدكتور مستنيك!"

وقفت للحظات أمام الباب المغلق قبل دخولي لأستجمع أنفاسي.. عند دخولي وجدت رجلًا ترك الزمن آثاره على ملامحه، فقد البعض من وسامته لكنه ما زال وسيمًا، سمينًا بعض الشيء وقصير القامة، دَب الشعر الأبيض في رأسه غطى على لونه البني الذي تبقى منه القليل من الخصلات، وكان له أيضًا أعين بُنية اللون.

عندما لاحظ وجودي التفت إليّ بابتسامةٍ ساذجةٍ وقام ليرحب بي:

- "أهلا أستاذ حسن! اتفضل اقعد، تحب تشرب حاجة؟".
- "شكرًا مش محتاج حاجة".
- "فعلًا! طالما مش محتاج حاجة أنت بتعمل إيه هنا؟".
- "عايز حد يسمعني.. أو يمكن يفهمني!".

-"شُفت أهو محتاج حاجة! على العموم أنا كلي آذان مصغية أخبرني بما تريد!".

أنهى كلماته وابتسم في هدوء في محاولة منه لجعلي أطمئن وأتحدث، وأُخرج ما بداخلي!

-"في يوم كان بحر إسكندرية موجه عالي وهمجي ومليان غضب والسحاب كان حزين ما بطلش بُكى، وأنا كنت واقف ما بينهم مش عارف أوصف نفسي بأنهي فيهم! غضبان وعايز أثور وأخلي أجدعها سباح يخاف يقرب مني! ولا أنا حزين مليان دموع الكل يقدر يقرب مني من غير خوف بل بكل طمأنينة وعدم انزعاج!

كأني لا أنتمي.. لا من البحر ولا من السما، زي طير، البحر والسما رافضينه، فواقف على الأرض بعيد عن الاثنين مستني معجزة تغير أي حاجة تخليه ينتمي لأي حد أو لأي حاجة! أنا حزين، هادى، غضبان، همجي، كل دقيقة بثور جوايا بدون ما حد يلاحظ، كأني بركان في جزيرة مجهولة في نص المحيط ما حدش يعرف بوجودي، ما حدش يعرف بأي حاجة بتحصل جواها، ما حدش حتى بيحاول!

الوحدة مرض أنا عارف بس أنا الوحدة اتفرضت عليا! أنا ما اخترتش أكون وحيد".

- "فيه دايمًا أسباب للوحدة! يعني الوحدة مش بتتخلق من فراغ ليها أسباب ظاهرة وواضحة وأسباب مجهولة، وفي أغلب الأوقات بنكون عارفين الأسباب ومستسلمين ليها تمامًا مع عدم المحاولة في تغييرها.. فهل تقدر يا أستاذ حسن تقول لي أو تحاول تشرح لي أي سبب واضح بالنسبالك؟"

- "أنا مش عايزك تعرف أسباب، ومش عايز أشرح، أنا عايزك تفهم! أتكلم فتتفهم أنا حاسس بإيه لأني بدأت أحس إني مخنوق من كترة الكلام اللي مكتوم جوايا! لكن معرفتك لتفاصيلي مش هتخليني أتحرك خطوة واحدة من مكاني! أنا جايلك لأني خايف! خايف أفضل كده، ما فيش حد بيفهمني! محتاج أتفهم، والأهم إني ألاقي علاج يداوي وحدتي ويملا الفراغ اللي بقيت حاسس بيه في كل حاجة! بشوف كل حاجة معدومة الألوان، فاضية خالية من الروح، كأني ملعون بعدم الشعور بالحياة، مسلوب الشعور بطعم أي حاجة ليها معنى إيجابي أو سلبي، زي بيت مات سُكانه فأصبح مهجور منسي! أنا عايز لما أموت ذكرايَ تعيش جوا حد تاني، مش عايز أتنسي!!".

****

انتهت الجلسة بطلبه مني الحضور باستمرار لرفضي لتعاطي أي مضادات للاكتئاب والاضطرابات النفسية.

- "حددي له مواعيد ثابتة يومين أسبوعيًّا لمدة شهر كبداية.. خليك معاها هتعرفك مواعيدك، تمام؟ أشوفك المرة الجاية يا أستاذ حسن!".

ربت على كتفي مع ابتسامة سطحية متكلفة ونظرة خاطفة داخل عيني وتركني واقفًا أمامها منتظرًا معرفة الموعد القادم الذي أشك في حضوري إليه.

لم ألحظ سهوتي أثناء نظري المستمر إليها، فلم أعتد أن أسهو إلا عند وقوفي أمام البحر في نهاية الليل، قاطعة عدم وعيي بالواقع كما يفعل بي موج البحر الهائج..

"أستاذ حسن!! حضرتك معايا؟".

"معاكي.. معاكي، أنا آسف!".

"لا أنا اللي آسفة إني وقفتك كل الوقت ده، أنا مش هقدر أعرّف حضرتك المواعيد دلوقت بسبب عُطل في الجهاز خارج عن إيدي حاليا، فأستأذن حضرتك في رقم "التلفون" وهكلم حضرتك في أول فرصة بعد ما أحل المشكلة!".

* * * *

(٢)

" هل حقًّا تبدأ اللعنات ببضع كلمات؟"

يوسف

مرت الشهور كالأيام، وبدأت الشمس تشرق وتغرب مختفية وراء تلك الغيوم التي فاض بها الألم فبكت، ليهرب منها الجميع ويبقى من حقًّا يتفهمها، اخترت تلك الأيام المليئة بالأمطار للاستمتاع ببعض الهدوء وموسيقاي المفضلة تحت تلك الدموع الحزينة..

أسيرُ بلا دليل وبلا هدف حتى سحبتني قدماي لمكان رؤيتها.. جلست على أحد الأرصفة الموازية للطريق لأريح قدمي وأتأمل الكثير من البشر الذي يمرون من أمامي دون أن يلاحظ أحد وجودي، لا أسمعهم لكني أرى أفواههم تتحرك، كانت كلمات الموسيقى المُنبثقة داخل أُذني تُغطي على كل شيء، أصواتهم، صراخ أفكاري، وعلى الجحيم القابع داخلي، الموسيقى قادرة على جعلي غير واعٍ، مُتلذذًا بها.

♫ إزازة فودكا مرمية على الكورنيش ♫

♫ وأنا وأنتِ بنرقص في الطريق مجانين ♫

♫ هوا ساقع يضايق عسكري في الجيش ♫

♫ غريبة البرد دا كله ومش حاسين ♫

♫ أنا وأنتِ جنان رسمي ♫

♫ في كون مجنون بنسكن فيه ♫

- إزازة فودكا، ع السلم باند.

في لحظات غريبة تحولت كل الأصوات لضوضاء مكتومة، توقفت الموسيقى، اختفى البشر، ظُلم المسرح وسُلط الضوء عليها..
كانت تقف على الجهة المقابلة للطريق، لم أكن أتوهم فأنا لست منتشيا، أنا واعٍ! إنها هي بجسدها النحيل ويتدلى خلفها شعرها الطويل المُبلل، تقف ثابتة في مكانها كثبات عينيها داخل عيني.. تحركت لأجد نفسي أمامها في ثبات كثباتها لكن يفصل بيننا قليل من السنتيمترات..
"شكلك فايق!".
"ما فيش وجع أداريه المرة دي".
"حتى وأنت بتحاول تداريه كان ظاهر في عنيك زي نور الشمس".
"أنا حياتي دايمًا مغيمة ما فيش فيها شمس".
"فعلًا! أمال أنا ليه كل حاجة واضحة ليا بالشكل ده؟
كيف لفتاة قامتها لا تصل لنصف قامتي تجعلني أرتجف من داخلي بهذا الشكل! ماذا يحدث لك يا يوسف؟!! أفق من سهوتك..
"تعال نقعد".
اختفت الشمس بالكامل وبدأ بالفعل الظلام في احتلال السماء، كانت تجلس بجواري في هدوء تام كما كان حال أمواج البحر في ذلك الوقت.. ازدادت برودة الجو بعد انتهاء الأمطار، فخلعتُ معطفي ووضعته على كتفيها وحاولت قطع الصمت بيننا ببضع كلمات لتفتح لنا المجال في التحدث.

"قوليلي بقى، أنتِ بتعملي إيه هنا؟".

نظرتْ في اتجاهي وأخذ منها القليل من الثواني قبل الرد..

"ولا حاجة، جيت في بالي النهاردة فقُلت آجي هنا يمكن ألاقيك!".

"فعلًا؟ وإتبسطي لما جيتِ وغرّقتِ نفسك كده؟".

"لا إتبسطت لمّا شُفتك".

"أنتِ ظهرتِ لي منين؟".

"أنا ببساطة شمس! وأنتَ؟".

مَدت يدها في اتجاهي ولمَعت ابتسامتها وأتاهتني فيها..

"يوسف".

"أهلا بيك يا يوسف، ممكن نبقى صحاب؟".

في تلك اللحظات التي تعجز فيها عن التمييز بين الواقع والخيال، هل ما تراه الآن واقع يحدث لك، أم مجرد أوهام تتفاوت أمام عينيك؟ تشعر أنك معلق بين أرض الواقع وعالم الأحلام، لا تمتلك القدرة على التمييز لشدة التشابه بينهما، تشعر وترى لكن ما يعجزك عن التفرقة هو معرفتك التامة بعدم حدوث بعض الأشياء في أرض الواقع، حيث إنه لا وجود لها إلا في عالم الأحلام.

****

شمس

"الوقت اتأخر أنا لازم أمشي".
" هشوفك تاني؟!".
" أكيد، مش احنا خلاص بقينا أصحاب!"

❊❊❊❊

مرت أيام وشهور وقلت المسافة بيننا يومًا بعد يوم، أصبح عادة في حياتي أن أراه وأتحدث معه بشكل يومي، أروي له تلك التفاصيل اليومية التي لا يهتم أحد لسماعها، كان دائمًا ما يُصغي دون ملل، لكنه أيضًا كان يتألم.. أعلم أنه كان يحاول ليصبح أفضل وأن يُخرج ذلك الظلام من داخله، لكن تنتهي محاولاته دائمًا بالفشل، كانت ظُلمة ماضيه تلاحقه في كل الأوقات، كلما حاول إضاءته تآكل من داخله، أصبح هشًّا غير قادر على التحكم في تصرفاته..

مع مرور الوقت كلما حاولت مساعدته أكثر ازداد غضبه من فشله، فعندما يعود لإدمانه تسوء حالته أكثر كمن يتحول لقنبلة تُحدث في كل مرة انفجارًا أكبر من السابق، حتى يأتي اليوم الذي سيؤدي إليه هذا الانفجار إلى إنهاء حياة كل من

يحاول مساعدته، وسينتهي به المطاف وحيدًا لا يجد ما يقضي عليه غير نفسه.

التاسع والعشرون من يونيو

استيقظتُ من النوم على رنات هاتفي ويظهر على الشاشة اسم يوسف، ليست من عاداته أن يستيقظ في ذلك الوقت المبكر أو ربما لم ينَم بعد..

"شمس؟".

صمتُّ للحظات فلم يكن ذلك صوته، فأنا أحفظه كما أحفظ كل تفاصيله عن ظهر قلب.

" أنا علي أخو يوسف، طلب مني أكلمك لأنه محتاج يشوفك!".

سيطر القلق على قلبي كما ظهر في اهتزاز صوتي:

"طب هو فين؟! حصل له حاجة؟".

"للأسف مش هيعرف يتكلم دلوقت.. تعرفي تجيله؟".

"هكون عنده مسافة السكة".

* * * *

"أنا قدام البيت!".

"طالع أفتح لك".

تَسَمَّرَت قدماي في مكانها ولم أخطُ خطوة واحدة عند رؤيتي لـ "علي"، كان يوسف يحكي ويروي لي الكثير عنه لكنه لم يذكر أبدًا أنه نفس الشخص الذي كان معه يوم الحادث! لقد هشمتُ له زجاج سيارته بالكامل!

أخرجني من ثباتي بكلماته..

"يوسف جوا، إتفضلي!".

تحركت بخطوات متباطئة حذرة لا أعلم هل يميز ملامحي أم لا، هل يتذكرني ويتجاهل أمري!

الأمر محير ومثير للريبة، أكره تلك اللحظات التي أعجز فيها عن تمييز حقيقة مشاعر من أمامي، هل ما يظهر داخل عينيه حقيقي أم أن القلب يحوي عكس ذلك؟

تخفي الأعين الكثير من الأسرار كما تفصح عن أسرار أخرى، مع العلم أنه في أغلب الأوقات تعد الأعين مرآةً للقلب، لكن في أوقات أخرى تكون مجرد ستار تخفي وراءها عكس ما تظهره.

****

حسن

سئمت من استيقاظي كل ليلة بعد منتصف الليل من كثرة تكرار ذلك الكابوس، لم يكن يزعجني تكراره أكثر من انزعاجي من تكرار نهايته، مهما تغيرت أحداثه أو تفاصيله تكون نهايته واحدة ومحتومة..

أكون مُتفرجًا خارج الصورة غير قادر على التحدث أو الحركة، وأرى العديد من المقاطع المصورة لأمي، لكن الغريب في الأمر أنني معها في كل المشاهد، منذ صغري وأنا أُخرج أول كلمة واضحة من بين شفتي، وأنا أعود لها باكيًا من المدرسة، وعند توبيخها لي على تصرفاتي السيئة في فترة المراهقة، ودموع الفرحة تسيل على خديها في حفل تخرجي.. حتى يأتي المشهد النهائي لذلك الكابوس..

"إوعى تنساني يا حسن!".

لتتحول إلى رماد بين يدي كما يتحول كل شيء من حولي!

تكرار ذلك الكابوس لا يجعلني أعتاد عليه، بل يحتل الألم منتصف صدري كل مرة كأني أراه للمرة الأولى!

قبل قراءتي ليومياتك كانت تمر عليّ بعض الأوقات التي أجلس لأتأمل فيها صورك وقراءة ملاحظاتك الصغيرة خلف بعض الصور المميزة، التي كانت تمتاز جميعها بظهور لمعة

مختلفة داخل عينيك تسبب فيها وجود أشخاص مميزين مثلك بجوارك.. وفي بعض الأوقات تنتابني الغيرة من هؤلاء الذين حولك في أغلب صورك وأتساءل:

"لماذا لم يتح لي الوقت لالتقاط صورة معك؟!

هل كانت ستظهر تلك اللمعة في عينيكِ وأنتِ بجواري؟

لمَ لمْ أمتلك الوقت الكافي للتواجد معك!".

لا أعلم إذا كنتُ أحق مِن مَن حولك، لكني كنت أتمنى أن أحظى بتلك الفرصة حتى إذا كانت لليلة واحدة.

لم أرَكِ من قبل يا أمي لكني لم أنسَكِ!

كيف أنساكِ وأنتِ دائمًا داخلي؟!

٠١:٤٩ بعد منتصف الليل

"أستاذ حسن، أنا ليلى سكرتيرة دكتور قُصي، حبيت أبلغ حضرتك بمعاد الجلسة الجاية..."

كان ذلك ما ظهر على شاشة هاتفي عند إضاءته بجواري، لم يلفت انتباهي في تلك الرسالة على برنامج الواتس آب غير أنه رقمها الخاص وليس الرقم الخاص بالعمل، كان مُسجلًا باسمها وتلك صورتها، لم أستطع منع نفسي من فتحها والتدقيق في تفاصيلها، تمتلك شعرًا قصيرًا لا يتجاوز كتفها يحتله اللون الأسود كما يحتل عينيها.

قوام جسدها كان مثاليًّا، كل شيء فيها كان مثاليًّا!

يستغرق وقوعك في الحب لحظة واحدة، نظرة خاطفة، كلمة منبثقة بطريقة خاصة تحمل داخلها مشاعر مختلفة، تتبعثر من داخلك وتمتلئ بالفوضى، لا ترى سببًا واضحًا لتصرفاتك الخالية من العقلانية، ولا لمشاعرك المندفعة كافتقادك لذلك الشخص ورغبة غير مبررة لرؤيته وسماع صوته باستمرار، تسرق منه قليلًا من النظرات غير الملحوظة، والشعور بالرجفة بعد تلامس الأيدي في سلامها، احتلال الأرق عالمك لتفكيرك المستمر في شخصٍ لا تعلم عنه ما يشبع رغبتك، الحب.. غريب، مربك، جميل، مؤلم، يحتوي على كل أنواع المشاعر سلبية كانت أو إيجابية، قادر على رفعك للسماء، وقادر على جعلك تتهاوى في اللا شيء، يستغرق وقوعك في الحب رمشة عين واحدة.

****

ليلى

كان لدي اليوم بطولة لإرسال تلك الكلمات.. لمَ بعد منتصف الليل بساعتين! ماذا سيقول عني الرجل الآن؟ ضاق بي الحال لأُراسله في ذلك الوقت من الليل؟!

مهلا! ما هذا؟! أهذا رقمي الخاص؟! عندما تتحدثون عن الغباء فلا شك أنني سوف أحتل المركز الأول.. أعتقد أنها أغبى تصرفاتي حتى الآن.. لكن لمَ كل هذا التوتر؟!! أين غاب عقلي؟! لمَ لا أستطيع التركيز؟! هل أنا أُحدث نفسي الآن؟ نعم فلقد كان ينقصني الجنون أو لعله أسوأ من ذلك.. لا، لا، يجب أن أتوقف الآن هذا يكفي!

"شكرًا جدًّا إنك افتكرتيني آنسة ليلى!".

"مقدرش أنسى حضرتك، أقصد يعني مقدرش أنسى أدي لحضرتك المواعيد، وإلا طبعا هيحصل لي مشكلة".

"مفهوم طبعًا، بالمناسبة، ابتسامتك هنا جميلة جدًّا... شداني لسبب ما لا أعلمه".

حقًّا! هل سيفعل بي ذلك الآن! تمالكي نفسك يا ليلى وتوقفي عن التفكير، لم يحدث شيء من الأساس لكل ذلك، مجرد إطراء من شخص آخر، ما الجديد في الأمر؟ لا شيء على الإطلاق ما عدا زيادة منسوب الغباء في دمي.. "مقدرش أنسى حضرتك".. مَن أحمق يقول ذلك لشخص غريب عنه غيري..

اسمه تقليدي ويبدو على ملامحه أنه مجرد شخص عادي بسيط، لا يختلف عن أي رجل آخر في شيء، لكن دائمًا ما تختلف الأرواح كاختلاف روحه العابرة خلال عينيه.. أنفاسه المتسارعة ونبضات قلبه المسموعة، وعلامات الحرق الظاهرة بطول ذراعه، وابتسامته الخاطفة وأسلوب تحاوره المميز بإدخال الفصحى بين كلماته، أصغر تفاصيله تمكنت من احتلال تفكيري ورفضها لمفارقته، كل ما هو تقليدي للآخرين أراه فيه مميزًا!

غالبا ما يكون الحب هو سبب حضور الأشخاص هنا، لكن ماذا لو اجتمعت الوحدة والحب في قلبٍ واحد! سيُهلك المرء حتى آخر ذرة مشاعر داخله، أكاد أجن من كثرة تفكيري فيه، كأن العقل أُحتل خوفًا من نسيانه، حتمًا إنه جنون، لا أريده أن يكون أسوأ من ذلك، أتمنى ألا أكون لُعنت بالحب!

هل الحب لعنة، أم نعمة؟ رافقني ذلك السؤال طول سنين عمري، دائمًا ما كنت أدافع عن الحب وجمال المشاعر التي تصاحبه، لكن كلما فرطت في حب شيء ما أراه يتلاشى مع الرياح، فبدأت بالاقتناع أن الحب ما هو إلا لعنة تصاحب المرء حتى آخر أيام حياته، مهما كانت المشاعر الرائعة التي تجعلك تشعر بها فهو في النهاية سلاح ذو حدين، لا شيء يكتمل دون جانبه المظلم.

****

(٣)

"لِمَ لا يُفهم ما تفعله بما فعلًا تعنيه؟"

شمس

"أنا آسف إني خلفت بوعدي إني هبعد عن الطريق ده، بس صدقيني ما كنش ينفع أقف بعيد أتفرج من غير ما أسند (علي) في اللي هو كان فيه".

"ما تتعبش نفسك بالكلام دا دلوقت.. ينفع تخليني أشوف الجرح؟".

انفعل "علي" دون سببٍ واضحٍ بالنسبة لي صارخًا في وجهي:

"ليه يعني؟ هتعملي إيه لما تشوفيه؟ هتعالجيه مثلا؟!".

رددت له انفعاله بانفعالٍ آخر:

"أيوة هعالجه، بدل ما آثار الجروح مالية جسمه بالشكل ده، على الأقل أنا فعلا هقدر أساعده بدل ما أنت قاعد بتتفرج عليه بيتوجع قدامك وبسببك وما بتعملش أي حاجة مفيدة غير إنك بتخليه كل شوية يبقى أسوأ".

تجاهل كلماتي ووجه كلماته ليوسف بنفس نبرته الحادة:

"مش قُلت لك! قلت لك هتيجي تعمل لنا مشكلة وتمشي!"

"ممكن تهدا يا علي! هي ما عملتش أي حاجة دلوقت! أنا واثق فيها وعارف إنها مش هتعمل حاجة، فلو سمحت كفاية لأني فعلًا محتاج وجودها".

أنهى كلماته بالنظر إليّ وأدار ظهره وأزال قميصه عنه ليكشف لي عن جسده الذي بالفعل لُف نصفه بالشاش، شرح لي كيف تعامل مع الأمر بينما كنت أُزيح الشاش عنه بهدوء، كلما أُزيحت طبقة من الشاش عن الجرح كنت أتنبأ ببشاعة ما أنا على وشك رؤيته! كان الجرح يمتد من منتصف ظهره لأسفل نصف جسده الأيسر، كان الوضع فوضويًّا لا يسُر الناظر أبدًا!

شهقت بمجرد النظر إليه واقشعر جسدي بالكامل..

"كان المفروض تروح مستشفى!".

التفت إليّ (علي) الذي لا ينفك عن نبث الغضب من بين أنفاسه، تظاهرت بعدم مبالاتي لذلك وطلبت منه ما احتاجه من أدوات للتعقيم والخياطة فتحرك في الحال وأكاد أرى الشرار ينبثق من عينه.

وضعت يدي على جسد يوسف لمعرفة عمق جرحه وإذا كان تعرض لأي نوعٍ من التلوث! ارتجف جسده بخفة بمجرد ملامستي له، نظر إليّ من خلف كتفيه العريضتين ليردف:

"أيديك باردين!".

"أنا بس متوترة!".

"ما تزعليش مني يا شمس!".

"أنا مش زعلانة منك! أنا بس خايفة أخسرك!".

نغضب من الآخرين لأسباب تكاد ألا تذكر لكن النتائج العائدة منها من المحتمل أن تضعنا في مواقف نحن غير قادرين على تحملها، انفعالاتنا على من نحب ومعاتبتنا لهم ليس لها أي دوافع سوى الخوف عليهم مما هو مترتب على أفعالهم، لو لم يكن يهمني أمرك ما كنت أرهقت نفسي واستنزفت طاقتي في محاولتي لمنعك من القيام بتلك الأمور، أنا لست غاضبة منك، أنا غاضبة من أفعالك التي تثير خوفي عليك باستمرار، فقط توقف عن جعلي دائمًا قلقةً عليك.

لم يتأخر علي في عودته وسلمني كل ما أتى به من مستلزمات، بدأت فورًا في تعقيم الأدوات ومكان الجرح، ووضعت له المخدر الموضعي على أمل أن يخفف ذلك آلامه، ارتعشت يداي عندما كنت على وشك البدء، وازداد توتري فلقد كان يفصل بيني وبين الانهيار لحظات معدودة، حاولت إعادة إدخال الهواء لرئتي وتنظيم أنفاسي المضطربة! فأنا لم أقم بذلك منذ فترة طويلة!

تصلبت عضلات جسده عند ملامسة الإبرة له، استمر في الضغط على أسنانه في محاولة منه لتحمل الألم، وكانت أصوات أنينه المتألم تخترقُ قلبي..

اهدأ يا صديقي كل شيء سينتهي قريبًا! سيتلاشى الألم كسراب لم يكن له وجود من البداية.

علي

عندما أصيب يوسف وسحبته سريعًا للمنزل وحاولت التعامل مع الأمر بنفسي لم ينفك عن الصراخ من شدة الألم، شعرت بالعجز فأنا لا أمتلك أي شيء يمكنني مساعدته به الآن، سحبني من يدي وطلب مني مهاتفة شمس وهي ستستطيع مساعدته، صرختُ في وجهه وهو في حالة لا تسمح لي بفعل ذلك لكنه كان رد فعل غير إرادي عندما ذكر لي اسم تلك الفتاة، رفضت الأمر تمامًا لكن تقطعت بي السبل ولم أستطع تحمل صرخاته المتألمة أكثر من ذلك.

كان وجودها في المكان يصيبني بالجنون.. سحبته بعيدًا عن عالمه واقتحمت عقله كوباء ليس له دواء، كان يعتقد أنها تمنعه من الإخطاء لتفادي الأسوأ لكنه لا يرى، لا يرى أنها أسوأ ما قد يحدث له.

أنهتْ خياطته بثباتٍ غريبٍ لفتاة في عمرها كمن اعتاد على رؤية مثل تلك الأمور، خرجتْ لغسل يديها وعادت لإعطائه بعض المهدئات وتركته ليذهب في سبات هادئ وتركت الباب شبه مغلق وتوجهت للجلوس على درجات السلم أمامه حتى تراقبه دون إزعاجه.

" كان آخر حاجة أتوقعها منك إنك تساعديه!".

أردفت بينما تحركت للجلوس بجوارها..

" وأنا ما جاش في بالي أي حاجة غير إني أساعده".

" أنا كنت رافض وجودك هنا النهاردة، وكمان كنت رافض وجودك في حياته من الأساس".

" أنا مش زي ما أنت فاكر! حياتي مش سهلة! أنا مش بنت مثالية حياتها خالية من الأخطاء".

"ما كنش عندي فكرة عن الطريقة اللي هتتعاملي بيها مع الموقف، واحدة زيك كسرتْ ليا إزاز عربيتي قبل كدا بطريقة متسرعة وخالية من التفكير، شخصية أفعالها سابقة لسانها، وأكيد عندها مبادئ ماشية عليها، وبالرغم من صغر سنك لكن عقلك كبير، تعاملك مع الأمر بالشكل دا غيّر فكرتي عنك، وخلاني أشوف فيكي اللي كبريائي كان منعني من إني أشوفه، إني مش دايما لازم أكون صح.. كل اللي عايز أقوله أنا متشكر إنك فعلًا بتساعديه وأي مشكلة حصلت ما بينا إعتبريها ما حصلتش أو مجرد سوء تفاهم".

ابتسمتْ بخفة..

"مهما كان اللي حصل فأنا تناسيته من زمان، ما تقلقش يا علي حصل خير واللي فات مات.. نقدر نبدأ صفحة جديدة!".

"نبدأ صفحة جديدة ومالو! بس فيه سؤال شاغل بالي.. إيه السبب اللي خلاكِ تتعلمي الكلام دا في سن صغير كده؟".

" سؤال في محله فعلًا.. بس دي حكاية طويلة قوي!".

"احكي.. احنا ورانا إيه؟ يوسف لسَّا قدامه حبة حلوين عما يصحى لأنه ما نمش من امبارح!".

"الحكاية بدأت من حوالي ثلاث سنين كنت لسَّا عيلة في أولى إعدادي مش فاهمة حاجة في الدنيا، آخر معرفتها بالشارع من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت، كان عندي أخ أكبر مني بأربع سنين في نفس عُمر يوسف، كان اسمه "محمود" وكان شبهه في كل حاجة من أول طريقة الكلام والأسلوب لحد الطريق اللي كان ماشي فيه، بس الفرق بينه وبين يوسف إن بابا وماما كانوا دايمًا حاضرين، الخطوة اللي بياخدها بحساب والغلطة وراها دايمًا عقاب، ما كنوش بيسألوا ليه، كانوا بس بيشوفوا الغلط وبيحاولوا يصلحوه بطريقة عمرها ما صلحت أي حاجة جواه، بل بالعكس مع كل عقاب كان عناده بيزيد ويكرر الغلط تاني وتالت لمجرد إنه اتمنع منه لحد ما بقى الغلط عنده عادة، زيه زي أي حاجة روتينية بيعملها كل يوم، الموضوع كبر معاه وبقى بيرجع البيت متبهدل ومتجرح، جسمه بدأ يتملي علامات لجروح مش متعالجة كويس لكن الأمر دايمًا كان بيكون بسيط، وفي المقابل أهلي عقابهم كان بيقسى كل مرة أكتر من اللي قبلها، آخر ما يزهقوا.. بيحبسوه.

في يوم بليل سمعت خبط جامد قوي قلقني من نومي، قمت أشوف في إيه.. لقيت محمود غرقان في دمه، جسمه وإيديه ووشه، كان مضروب لحد ما ملامحه اختفت من كُتر الكدمات والجروح، كان مشهد من المشاهد اللي ما تتنسيش، ما فيش لحظات ولقيت ماما دخلت ورايا ولحقوه على المستشفى والمرة دي عدت على خير.

مر بعدها يوم واتنين وشهر، لحد ما نفس الأمر بدأ بيتكرر تاني، بس بيرجع ويداري نفسه في أوضته ويفضل حابس نفسه بالأيام علشان ما حدش يشوفه ولا يعرف حاجة.

من بعدها وأنا بدأت أتعلم حاجات كتير عن التعامل مع الجروح بأنواعها وخياطتها والكدمات وكل الظروف اللي ممكن أتحط فيها والكلام ده".

" أنا أول مرة أعرف إن عندك أخوات، يوسف كان قال لي إنك بنت وحيدة!".

"الحكاية لسَّا ما خلصتش.. محمود قعد شهور على الحال ده، لما يحصل له أي حاجة عارف انه هيروح يلاقيني علشان أساعده، ف ما بقاش بيفرق معاه أي حاجة، مهما حصل له أنا هعرف أتعامل.. في كل مرة كنت بلومه وساعات كنت بتعمد أوجعه علشان أقول له مش كل مرة تسلم الكرة، هساعدك مرة واتنين لكن في المرة الثالثة مش هعرف أساعدك، لحد ما جه وقتها.

دخل عليا في يوم الأوضة وهو مش قادر يُصلب طوله، وقع على الأرض فاتحركت بسرعة علشان ألحقه وبحاول أدور على مكان الجرح، لقيته واخد سكينه في نص صدره بالظبط، كان بينزف بطريقة بشعة ومعرفش أصلا هو قدر يوصل لهنا إزاي، حاولت أعمل حاجة علشان أوقف النزيف بس ما كنش بيقف! لسًّا هتحرك علشان أنادي على بابا أو ماما يلحقوني لأن من بشاعة المنظر حسيت بعجز! بس لقيته مسكني من إيدي وبيحرك راسه بالنفي وبيقولي: "بلاش! مش عايز حد يلحقني.. كفاية عليا كده!".

بدأت أنهار وما قدرتش أمنع دموعي وأنا بقول له: "أنا آسفة، أنا مش عارفة أعمل حاجة!!"

ماما وبابا دخلوا علينا وجريوا بيه على المستشفى بس الوقت خاني، آخر حاجة قالها لي: "إفتكري دايمًا إنك الوحيدة اللي وقفت جنبي!"

قالوا لنا على الساعة اللي قلبه وقف فيها "الساعة اثنا عشر وسبعة وثلاثون دقيقة" فكراها دايما وما قدرتش أنساها..

وهي دي كل الحكاية."

قطرات الدموع بدأت تتساقط من عينيها لتمسحها سريعًا..

"أنا آسف جدًّا يا شمس ما كنتش أعرف إن الموضوع بالشكل ده".

" لا لا، بتعتذر على إيه! أنت ما لكش ذنب في أي حاجة من كل دا أكيد.. كل ما في الأمر إن أول مرة شُفت فيها يوسف، شُفت في عنيه اللي كنت دايمًا بشوفه في عين محمود.. دا خلاني دايمًا خايفة، خايفة الحكاية تتكرر تاني.. أظن كفاية إني أخسر شخص واحد لـ نفس الأسباب، مش كده؟".

"بس يوسف أتغير كتير، كتير جدًّا كمان! وبيعمل كل دا علشانك! أنا كنت رافض وجودك في حياته لأنه كان كل ما يقرب منك بيبعد عني! كنت متضايق إنه بيبعد عني علشانك!".

" بس أنا مش عايزاه يعمل كل دا علشاني! لو مش هيبذل كل المجهود دا علشان نفسه.. سهل جدا إنه يضيع منه بمجرد ما أختفي من حياته، ما حدش ضامن بكرة مخبي له إيه!".

أنهت كلماتها وهي تنظر إليه في سباته بعد معاناته الليلة الماضية وكل الآلام التي تسببتُ بها له ألوم نفسي عليها كل دقيقة، فلو لم أكن أسحبه معي في طريقي ما كان أصبح مُتشتتا بين إدمانه للمخدرات وإدمانه لهَا.

لو كنت جعلته يحيا ببساطة.. لكانت حياته أهدأ معها الآن!

وجهة نظرنا عن الأشخاص تختلف بمجرد التعامل معهم.

****

محمد

كانت أول دروس الرياضيات في الثانوية العامة، كان حلم طفولتي أن ألتحق بكلية الهندسة، مع أن مادة الرياضيات لم تكن أكثر المواد المُحببة بالنسبة لي، لكني أدرسها بسلاسةٍ وسهولةٍ ولا أرى فيها الكثير من التعقيدات كالمواد العلمية "الكيمياء والفيزياء".

كحال جميع الطلاب لست ملتزمًا بالحضور المُستمر في جميع دروسي، لكن كانت لحصة الرياضيات مكانة خاصة في قلبي، فكان هذا المكان الذي أراها فيه.. كنت أراها مرتين أسبوعيًّا، عادةً ما تجلس مقابلة لي.. هادئة، قليلة الكلام، مميزة، ذكية، سريعة الإدراك، كان تميزها عني في الدراسة هو أول ما لفت انتباهي إليها، كنت أعتقد أن مستواها في الرياضيات كباقي المواد، لكنها لم تكن متميزة سوى في الرياضيات كأن عقلها رفض فتح خلاياه إلا لتلك المادة، كما رفض عقلي غلق خلاياه والتوقف عن التفكير بها.

كنت أذهب كل مرة مُبكرًا وأنتظر حتى أراها وهي تدخل رافعةً شعرها ويتدلى منه بعض الخصلات المتساقطة على وجهها ليعطي لها ذلك المنظر الفوضوي المُرتب، لم تفشل مرة في إبهاري بجمالها.

كنت أسرق نظراتي إليها بين الحين والآخر كلما سنحت لي الفرصة، كان يشتعل وجهي بالحرارة كلما بادلتني سرقة الأنظار، يسيطر عليّ التوتر كمن ارتكب جريمة ويعجز عن إخفائها، لكني كنت أذهب للمنزل كل مرة وابتسامة بلهاء تعلو وجهي، كان الوضع داخلي مليئًا بالفوضى، كنت أشعر بالسعادة والحزن في آنٍ واحدٍ، لم أكن أفهم أو أعلم سبب حدوث تلك الفوضى!!

الأعين دائمًا ما تحمل داخلها الكثير من الكلمات التي يعجز اللسان عن قولها، يمكنك معرفة كل شيء بمجرد النظر إليها، لكن هناك بضع كلمات يجب أنا نسمعها بأنفسنا حتى نتأكد من صدقها، مهما عبرت عنها الأعين، مهما ظهرت في ثنايا الأفعال، يجب أن تقال، أن تسمع، أن تقع على الآذان لتصل للقلب لتجعله يطمئن أن ما شعر به حقيقي!

****

شمس

ها قد بدأت أسوأ كوابيس الجميع "الثانوية العامة"، لم أكن أهتم بالتفكير كثيرًا في مستقبلي مثل: ماذا أريد أن أصبح، أو إلى أي مُنحنى أريد أن تسير حياتي، فلم أكن أبدًا أُفكر في المستقبل أكثر من ماذا سوف نأكل في الغد، فأنا أعشق الطعام وهذا هو الفرق.. أنا أُحب الطعام لكني أخاف من المستقبل!

في حكم الواقع يجب عليّ الدراسة أكثر لأصل لإحدى كليات القمة، وبعد دخولي المرحلة الجامعية مهما كان مجالي سيترتب على ذلك ما تبقى من مستقبلي، تلك خطوات سخيفة.. أريد فقط فعل ما أريد وقت ما أريد دون الإفراط في التفكير فيما يُخبئه القدر لي! فليكن ما يجب أن يكون.

أنا لا أهتم فعليًّا لأي كلية سوف ألتحق، فمهما كان مستقبلي سوف أستمتع به، وإن حدث شيء لم يعجبني سأُحاول تغييره حتى لو بصورة بسيطة، وإن لم أستطع سأتقبل دائمًا ما يحمله لي الغد، وكل ما أتمناه حقًّا أن أجعل وقتي في تلك الحياة خفيفًا كالظل، موجود، ملحوظ، غير مؤذٍ، يُظلل العابرين من خلاله دون ملل، هكذا كنت، هكذا أنا، وهكذا أريد أن أكون.

أغلب الوقت أحسد يوسف على ما فعله في الثانوية العامة، كل الجُهد الذي بذله في ذلك العام هو البحث عن الإجابات لنقلها بكل سلاسة من الكتاب لورقة الإجابة، كان الغش هو كل ما فعله، استمتع بكل دقيقة في السنة مثلها كمثل أي سنة أخرى، لم ينتهِ به المطاف في كلية قمة لكنه التحق بكلية التجارة.. أخبرني في مرة أنه كان فقط يريد النجاح والحصول على شهادة التخرج والبحث عن عمل لبناء حياة خالية من الأخطاء.

أعتقد أن نهايتي ستكون مماثلة له ليست الأمثل وليست الأسوأ، أقل ما قد أقوله إنه سيكون لي صديق قريب لي في نفس المجال ولن أكون وحدي، فوجودي في أي مكان وحدي يتسبب في إصابتي بالتوتر الشديد والاهتزاز بسبب رهبتي من التجمُّعات، لكن وجوده معي سيجعلني أشعر بالارتياح، أتمنى أن يكون دائمًا رفيقي.

* * * *

في أحد أيام بداية ظهور علامات دخول الخريف، اقترح والدي الذهاب لقضاء بعض الليالي في شقة العين السُّخنة قبل احتلال البرودة أرجاء البلاد، رحبت أنا وأمي بالفكرة، فكانت الأجواء في المنزل رمادية في ذلك الوقت.

لم يأخذ مني الكثير من الوقت في تجهيز أغراضي وذهبت ليوسف لإخباره بالأمر وتوديعه فلم أعتَد أن تمُر عدة أيام دون رؤيته.

ذهبت بعد ذلك لمُدرس الرياضيات لإخباره عدم قدرتي على حضور حصة اليوم والحصص القليلة القادمة لأسباب سفري الليلة، لم يكن من الصعب عليّ التغيب دون إخباره، لكنها كانت مجرد حجة سخيفة لسرقة نظرة خاطفة لأحدهم قبل مغادرتي!

نعم، أعتقد أنني وقعت لأحدهم! لكن لم أمتلك الشجاعة بعد لإخباره؛ الأمر أصعب مما هو ظاهر، كما أنه لا تربطنا ببعض أي علاقة تجعلني على الأقل أتحدث له بضع كلمات.

كانت علاقتنا محدودة بنظرات متبادلة، صامتة، لكنها تحمل الكثير، لم يتحدث أحد منا للآخر لكن سرقة النظر إليه والتقاط تفاصيله هي أجمل ما في الأمر كشعر رأسه الأسود

الكثيف المُلتف حول نفسه وسمار بشرته وحدة ذقنه وسواد عينيه، عريض الكتفين متوسط الطول، يُعطي لك الانطباع الأول بمجرد النظر إليه أنه قاسي الطباع، لكن إذا سقط في حُب إحداهن لن ترى سوى الحنان والطمأنينة في عينيه! أتمنى أن أكون أنا صاحبة هذا الحظ.

ولكن كعادتي لن أُفكر كثيرًا بما سوف يحدث، سأُفكر في اللحظة الحالية فقط.

حان وقت ذهابي للاستمتاع بملامسة بعض الأمواج.

❋ ❋ ❋ ❋

ليلى

كان يأتي كل مرة دون التحدث معي، فقط يبتسم لي عند دخوله وعند خروجه ولا يفتح فمه اللعين بكلمةٍ واحدة، يأتي في معاده بالدقيقة ويقضي كما يقضي ويغادر في هدوء، لكنه لم يكن يقضي الكثير من الوقت في الداخل فلم يكمل الساعة قط.

أتساءل في كل مرة يأتي فيها عن ما يرويه في الداخل، لم يُثِرني الفضول من قبل لمعرفة ما يُحكى في الداخل مع أحدٍ غيره، ومع ذلك فإنه الوحيد الذي لا يتحدث معي في وقت انتظاره قبل أو بعد معاده، فطبيعة عملي أن أعتاد أن يتحدث معي المرضى الذين يأتون باستمرار، وأن أكون خفيفة الروح غير متكلفة حتى لا يشعر المريض بالتوتر أو الاضطراب أو الخوف من التحدث في أي شيء قد يخطر على باله.

لكن ذلك الشخص الذي يُدعى "حسن" يخبرني أنني جميلة في محادثة إلكترونية وبعد ذلك أصبح يتفنن في تجاهلي المُستمر وذلك أسوأ ما قد تشعر به المرأة، أكره كوني شخصًا غير مرئي لمن أريدهم أن يروني!

أعتقد أنه سوف يأتي يومٌ وأعلم كل ما هو غامض تجاه ذلك الشخص.

قطع تفكيري الليلي رسالة في هاتفي لتُنير الشاشة ويظهر اسمه في منتصفها!

"تحبي نخرج شوية؟".

قُطعت أنفاسي، ارتعشت يداي وثار غضبي حتى أنفي.. هل يمزح معي! قضى الشهر الماضي في تجاهل تام وعدم الالتفات إليّ ويأتي الآن ليخبرني هيا لنخرج!

أخذت نفسًا عميقًا وحاولت تهدئة أفكاري وكتبت له دون التفكير للحظة في الرفض:

"ما عنديش مشكلة".

لم يكن ذلك أفضل قراراتي ولكنه ليس قرارًا سيئًا على الإطلاق، فلنتحدث بصراحة: هو يعجبني ويُثير غموضه فضولي فلماذا الرفض؟ تجاهلني فترة طويلة لكنه تحدث في النهاية! سأعطيه فرصته وأستغل أنا الوضع في إشباع تعطش فضولي تجاهه.

****

تزينت كما لم أفعل من قبل لكني لم أُبالغ أيضًا، يجب أن يراني في أبهى صوري في أول مقابلة لنا، لا أحب مستحضرات التجميل لكن لا ضرر في وضع القليل منها.

كان ينتظرني أسفل المنزل بسيارته الفاخرة، لم يكن يظهر عليه هذا النوع من التَّرف، فكانت ثيابه وطريقة تحدثه أبسط مما يُخفي.

"إتفضلي يا هانم!".

أردف بابتسامة جعلتني أحبس أنفاسي من جمالها وفتح لي باب سيارته، مما جعلني أشعر أنني في أحد مشاهد أفلام الزمن الجميل.

كان يرتدي قميصًا سماوي اللون وبنطالًا كُحليًا وحذاء يتناسق لونه مع حزامه باللون البني، جسده الرياضي وطول قامته جعلا منه شخصًا كاملًا خاطفًا للأنفاس!

لا وجود للكمال، لكنّ هناك شخصًا واحدًا فقط مهما امتلأ بالعيوب يكون كاملًا من خلال أعيننا.

****

حسن

"أنا تحت"

أرسلت إليها تلك الرسالة ونزلت من السيارة وأسندت ظهري إليها مُنتظرًا نزولها، ما هي إلا دقائق قليلة حتى رأيتها تظهر أمامي، كانت ترتدي فستانًا قصيرًا يُبرز ساقيها القصيرتين يغلب عليه اللون الكُحلي مع لمعة خفيفة، وحذاء بلون حقيبتها فضي اللون، تاركةً شعرها القصير ذا التموجات الخفيفة لتداعبه الرياح، كانت أجمل ما رأت عيني!!

أخذتُها لأحد المطاعم التي أشعر فيها ببعض الأُلفة داخلي من هدوئها وروح المكان الخفيفة على قلبي.

بدأنا في التحدث عن أمور سطحية في بادئ الأمر حيث بدأ كلامنا في إخبار الآخر عن قليل من التفاصيل الشخصية حتى بادرتني بسؤالها:

" هل المكان دا مميز بالنسبالك ولا أنت مجرد اخترته بعشوائية؟".

"لا مش مجرد اختيار عشوائي، المكان له مكانة خاصة جدًّا في قلبي، كفاية الإطلالة بتاعته على البحر، مكان مميز وبقدر أنفرد بنفسي هنا بعيد عن أي حد وأي حاجة، علشان كدا جبتك هنا".

" هل دا معناه إني شخص مميز علشان كدا جبتني لمكان مميز؟".

" بالظبط".

" طب بما إني شخص مميز بالنسبالك زي ما بتقول، ليه كنت بتتجاهلني الفترة اللي فاتت؟".

كان ذلك السؤال في محله، جعلني أستجمع ما بداخلي من قوة حتى أخبرها بالسبب الفعلي لجلوسها أمامي الآن، أسندت ظهري للخلف وسحبت نفسًا عميقًا داخل صدري وبدأت في التحدث:

"بصي يا ليلى.. أنا معجب بيكي من أول يوم شُفتك فيه، حاولت أتجاهل انجذابي ليكي بس كل لما بحاول بفكر فيكي أكتر من الأول، وسبب سكوتي الفترة اللي فاتت إني كنت غير متزن نفسيًّا، وعدم اتزاني واحتياجي لحد جنبي طبيعي جدا بالنسبة للوقت الصعب اللي كنت بمر بيه، فأنا مش هكون حابب أبدًا إن بعد ما أتخطى الفترة دي انجذابي ليكي يروح، فأنا كان لازم أتأكد من حقيقة مشاعري الأول قبل ما آخد أي خطوة تجاهك مهما كانت بسيطة..

فأنا قاعد قدامك دلوقت علشان أقولك بكل اتزان نفسي أنا عايزك في حياتي ومش مجرد فترة، أنا عايزك معايا دايمًا".

♫ بشوفك زي أول مرة وكنتِ غيرهم ♫

♫ كنتِ حرة واللي في قلبك كان برة ♫

♫ أنتِ كل حلم عدى واستخبى ♫

♫ وخرجتيه مني بزقه ♫

♫ بتشديني ودايمًا سابقة ♫

♫ علشانك أنا قادر أكمل، علشانك قادر أتحمل ♫

♫ وكل مرة بشوفك بحبك تاني من الأول ♫

♫ ليلى، ليلى، ليلى، ليلى ♫

♫ ليلى، ليلى، ليلى، ليلى ♫

- ليلى، كايروكي.

****

(٤)

"عادةً ما تُخفى أعظم الكبائر"

يوسف

الواحد والعشرون من أكتوبر

"الرقم المطلوب مغلق أو غير متاح، اضغط رقم ... ".

"ممكن تهدا! وتبطل ترن عليها!".

"موبايلها مقفول من بدري!".

"كترة رنك لا هيفتح الموبايل ولا هيخليها ترد عليك..".

تجاهلتُ كلماته وأعدت الاتصال مرارًا وتكرارًا، أكاد أُصاب بالجنون من شدة قلقي عليها، ليس من عادتها أن تُغلق هاتفها أو أن تبقى كل تلك المدة دون التواصل معي حتى لو برسالة واحدة، لكنها اختفت تمامًا دون سابق إنذار.

أتذكر أحد الأيام عندما سُرق هاتفها وجدتها تحادثني من رقم أحد المارة حتى أستطيع الذهاب إليها حيث كانت، مهما كانت ما تمر به يمنعها من التواصل معي فهو سيئ.. سيئ للغاية.

كانت آخر رسالة منها قبل ذهابها للنوم في الأمس لتخبرني أنها قادمة في الغد.. عند استيقاظي في الصباح حاولت التواصل معها للاطمئنان أين وصلت أو متى سوف تصل لكني لم أستطع، فازداد عدد مكالماتي كلما مر الوقت وازداد معه قلقي، حتى حَل الليل ولم أصل لشيء بعد، أكاد أفقد صوابي كان من المفترض أن تكون هنا منذ وقت طويل!

سحبتني قدماي لمكان بيتها لكني لم أجد سيارة والدها في مكانها المعتاد، لم يكن بيدي شيء سوى أن أجلس أمام منزلها منتظرًا عودتها، فكل من يذهب يعود، أليس كذلك؟

****

أشرقت شمس اليوم التالي ولا زلت منتظرًا في مكاني.. تسلل الإرهاق لجسدي فتحركت للعودة لبيتي، لم أذق النوم منذ صباح اليوم السابق. عندما وصلتُ سقطت على فراشي أنظر إلى سقف غرفتي، أو إلى تلك السحابة رفيقة دَربي.

رفيقتي شمس! لم أعتد على غيابك من يوم لقائك، كنتِ دائمًا حاضرة معي بوجودك الفعلي أو صوتك الطفولي الذي مهما حاولتِ في رفع نبرته يظل يشبه صوت الأطفال، أو برسائلك غير المتوقعة في جميع أوقات يومي.

ساعدتِني كثيرًا أو لكي يصح قولي أنتِ من بذل كل المجهود في تغيري لما أنا عليه الآن، لولا وجودك لم أكن لأعلم أنني أستطيع أن أكون ذلك الشخص الذي يختلف تمامًا عما كنت عند رؤيتك لأول مرة! ملأتِ ذلك الفراغ داخلي، أصلحتِ كل ما هو خاطئ، أمسكتِ بيدي عندما تركني الجميع، كنتِ دائمًا هنا، أرجوكِ لا تغيبي الآن.. أنا أحتاجك.

غفوت كمن لم يذق النوم لليالٍ طويلة، غفوت وأنا أتمنى عند استيقاظي أن تجد طريقها للعودة.

****

أيقظني كثرة رنين هاتفي الذي لا يتوقف وكاد الصداع أن يفتك برأسي ويجعلني لا أستطيع الرؤية سوى تشوش من شدة الألم داخله، رفعت هاتفي حتى أميز أن هناك العديد من المكالمات الفائتة من أخي، لم أكد أعي ذلك حتى وجدته يعيد الاتصال مرة أخرى:

"أنتَ فين يا يوسف؟ برن عليك من بدري".

"كنت نايم، فيه حاجة؟".

" أنا في طريقي ليك..".

ما هي إلا دقائق معدودة حتى وجدته أمامي ويظهر في عينيه الكثير من المشاعر المتضاربة عجزت عن تحديدها.

"في إيه! ما لك؟".

" تعرف أبو شمس اسمه إيه؟".

"وانت بتسأل ليه؟".

"انجز يا يوسف!!".

تحدث بقلة صبر وبدأ يظهر في نبرة صوته قليل من الاهتزاز، لكن لم يكن يشغلني سوى ما هو على وشك أن يخبرني به..

"فهمني الأول وبعدها هعرفك اللي أنت عايزه!".

"في إنهم لقوا عربية كانت عملت حادثة من يومين، وكانوا بيحاولوا يتعرفوا على اللي كانوا فيها، ولسَّا الكلام دا واصل لي حالًا، الجثث كانت مشوهة والموضوع أخد منهم وقت علشان يحددوا هويتهم".

"وعرفوا اسم صاحب العربية؟".

" خالد سمير..".

عرفت على الفور أنه والدها لأنها أخبرتني باسمه من قبل.

ساد الظلام على عيني ولم أستطع تصديق ما سمعته للتو، تلك الكلمات مجرد تُرهات لن أستطيع تقبلها، شمس لا يمكن أن تموت، شمس دائمًا ما تعود.

هرعت إلى الخارج وبدأت في الركض، لا أعلم إلى أين أتجه، لكني ظللت أركض حتى انقطعت أنفاسي فتراخت قواي لأسقط أرضًا، كان الطريق حولي فارغًا من البشر وخاليًا من أي نوع من أنواع الحياة، لم أشعر بنفسي سوى وأنا أُخرج ما بداخلي على هيئة صراخ هز جدران قلبي وجعلني أرتجف حزنًا، انهرت باكيًا بأعلى صوتي كَيوم وفاة والدتي، أتذكر ذلك اليوم جيدًا رغم صغر سني وقتها لكن فقدان من كان دائمًا يمسك بيديك مهما بَدر منك من أفعال، كفقدان جزء من روحك! وها هو المشهد يتكرر من جديد.

أخبرتِني أنك ستعودين، لكنك لم تفعلي! غيابك أخذ معه ضوءك وأسباب تمسكي بالحياة.

♫ ما تتركني هيك، عم فتش عليك ♫

♫ بأسفل كل كاس، بين تخوت الناس ♫

♫ بتوهم وجك، وبنادي اسمك ♫

♫ كأنه موشوم عشفايفي بسموم ♫

♫ مزجها عفريت، بحِبر مُميت ♫

♫ ما إله دوا، بخيبة الهوى ♫

♫ ما تتركني هيك، ما تتركني هيك ♫

♫ ما تتركني هيك، ما تتركني هيك ♫

♫ حبيبي خليك، وبيحلى السمر ♫

♫ منشرب القمر، ونوره بيرويك ♫

♫ بقطفلك النجوم، بركبها عتاج ♫

♫ ببنيلنا ملاذ، وراء الغيوم ♫

♫ إذا بتهجر، خد قلبي معاك ♫

♫ خد روحي معاك، واتركني بالمُر ♫

♫ ما تتركني هيك، ما تتركني هيك ♫

♫ ما تتركني هيك، ما تتركني هيك ♫

- ما تتركني هيك، مشروع ليلى.

* * * *

علي

الثالث من نوفمبر

طول سنين يوسف الطويلة لم أرَه في حالة أسوأ من حالته هذه الفترة، أصبح مُنعزلًا، صامتًا، غاضبًا، وسريع الانفعال، أصبح يدخن السجائر بِشراهة يستنفد من علبتين لثلاثة يوميًا، كلما مرت الأيام ساءت حالته أكثر فلقد عاد إلى جميع عاداته القديمة، كانت شمس السبب الوحيد الذي يمنعه من الأخطاء.. مع اختفائها المفاجئ اختفى سببه معها، فلم يعد أحد يستطيع منعه من التوقف.

" اللي أنت بتعمله في نفسك دا جنان!! أنا مش فاهم أنت ليه عايز ترجع لكل القرف دا بعد ما بطلته؟!".

" سبني في حالي يا علي وخليك في حالك".

"حرام عليك تضيع كل تعبها معاك بالشكل ده!".

"حرام عليا؟! ومش حرام إنها تموت في السن ده؟! مش حرام إنها تسيبني وتخلف بوعدها إنها عمرها ما هتمشي! قالت لي طول ما أنا هنا مش هخليك تمشي في سكة غلط! هكون دايمًا في ضهرك علشان أسحبك بعيد عن أي حاجة ممكن تأذيك! هي فين دلوقت علشان تمنعني! مش موجودة يا علي! ولا عمرها هتكون!".

"زي ما أنا اللي حطيتك على أول الطريق دا، أنا برضو أقدر أمنعك تكمل فيه!!".

صدرتْ منه ضحكة ساخرة أصابتني بالتوتر مما زاد من حدة أعصابي، هل يسخر مني الآن اعتقادًا منه أنني غير قادر على ذلك!

"تمنعني أنا! أنت لو كنت تقدر تمنعني فعلًا كنت منعت نفسك!".

" ومين قالك إني عايز أمنع نفسي من أي حاجة! دي بقت حياتي خلاص ومش هتفرق كتير لو غيرتها..

أنا كبرت في الدنيا دي لوحدي يا يوسف، من غير لا أم ولا أب زي ما شُفت كل واحد فيهم كان في دنيته، لما أمك ماتت وأنت لسَّا مش واعي على الدنيا أخدتك وعلمتك وربيتك زي ما أنا اتربيت، خفت عليك أكتر من نفسي، خفت لتصحى في يوم تلاقي نفسك في الدنيا بطولك وتتبهدل وما تعرفش تعيش!

صحيح أنا غلطت لما اخدتك في طريقي، قلت لك حارب علشان تعيش لأني ما كنتش عايز حد يدوس لك على طرف، كنت عايز الناس تعملك ألف حساب.. لكن لما لقيتك فجأة بتحاول تبطل وبتبعد، وكل يوم والتاني معاها، وأسمعك في آخر الليل سهران بتكلمها، حتى لما كانت بتيجي عليك أيام وعقلك يهرب منك كنت بتهلوس واسمها مش بيفارق لسانك! كنت فاكرها فترة وهتعدي بس يوم ما وقعت وطلبت تشوفها وهي جات لك

واتكلمت معاها، فوقت ساعتها واستوعبت أن كل محاولاتي بسبب خوفي عليك ما هي إلا أسباب أكتر لخسارتك..

أنا آسف يا يوسف، آسف.. بس أنا كنت خايف عليك".

"أنا عايزك تعرف يا علي إنك مهم عندي زي ما أنا مهم عندك، وخسارتك هتبقى أصعب من إني أتحملها بس صدقني المرة دي اللي أنا فيه دا مش بسببك أو بسبب إنك عرفتني عليه في المقام الأول! ما تشلش ذنب انت ما عملتوش..

اللي أنا بمر بيه دلوقت ما لوش وصف بيوجعني وبس، ومهما حاولت هيفضل موجود، حياتي غيمت تاني بعد ما مشت، مهما أصبح وجعي ظاهر للناس ما حدش هيشوفه، لأن ما حدش كان بيشوفه غيرها، ما بقاش فيه شمس تنور لي حياتي يا علي".

❊❊❊❊

شمس

الواحد والعشرون من أكتوبر

استيقظتُ من نومي بعد عدة محاولات من والدي لإيقاظي لأرفع هاتفي وأنظر في الساعة، إنها الثالثة بعد منتصف الليل، لم أغفُ إلا بضع ساعات لم تكفِني فقررت أن أنام في طريق العودة..

كانت الساعة الرابعة والنصف عندما بدأنا التحرك، غلبني النعاس فورًا لكني لم أنعم بنومٍ متواصل، لم أكد أُكمل الساعة حتى شعرت بالسيارة تقف لينزل منها والدي لتعبئة البنزين ويأتي لنا ببعض المسليات، ناولني إياها ووقف بجوار السيارة ينتظر امتلاء "التانك"، تناولت عصير المانجو المُعلب المفضل لي، ورفعت هاتفي حتى أُخبر يوسف أنني في الطريق.. لكن لم تُتَح لي الفرصة قط.

عند روايتي للأمر تكون الأحداث أطول مما حدثت بالفعل، فارتطام إحدى عربات النقل الكبيرة بنا من أحد جوانب السيارة عندما فقد سائقها السيطرة عليها لم يأخذ سوى بضع ثوانٍ! لكن عند تذكري للأمر وإعادة تفاصيله داخل عقلي يستغرق ذلك الكثير من الوقت! وما هو غير مفهوم بالنسبة لي كيف لتلك الثواني أن تحفر وجودها داخل عقلي وقلبي لما تبقى لي من عُمر!

احتلال الألم جسدي جعلني غير قادرة على الحركة مع اصطحابه بطنين مزعج داخل رأسي، شعرت بأحدهم يسحبني خارج السيارة التي بالفعل أصبحتْ رأسًا على عقب..

" اسحبها بسرعة؛ العربية هتفرقع".

" ابعدوا عنهااا..".

صرخات متعالية من جميع الاتجاهات لم تهدأ حتى لحقها صوت انفجار السيارة، سقطت أرضًا بعدما سقط من كان يحملني من شدة الانفجار، تسمّر جسدي في مكانه وثبتت عيني على مكان الانفجار انتظر رؤيتهم.. أبحث عنهم لتكذيب فقط ما يشعر به قلبي! دائمًا لا يسمح لي الوقت في تحقيق ما أُريده حقًّا..

ازداد الطنين في رأسي جعلني عاجزة عن فتح عيني، ما هي إلا لحظات حتى فقدت وعيي بنفسي.

****

الثامن والعشرون من أكتوبر

عندما أفقت وجدت نفسي في إحدى غرف مستشفًى ما حيث كانت الأجواء هادئة خافتة، حاولت التحرك من مكاني لكن انتابني ألم شديد في رأسي وأصابني دوار خفيف أفقدني جزءًا من توازني، كما أنني عجزت عن تحريك قدمي مع عدم ذكر الألم الذي احتل جميع عضلات جسدي، حاولت البحث عن أي شيء لمناداة أي شخص لسؤاله عن والِديّ، أتت الممرضة لتخبرني أن الطبيب في طريقه لي، مر ما يقارب النصف ساعة حتى دخل رجلٌ في نهاية العشرينيات من عمره أو ربما في بداية الثلاثين تتزين ملامح وجهه بلحية كثيفة لكنه كان مألوفًا بالنسبة لي..

"حمدًا لله على سلامتك يا شمس، أخبارك إيه؟ أنا الدكتور أحمد المسؤول عن حالتك".

صمتُّ للحظات وبدأت تتجمع الدموع داخل عيني وحاولت التحدث دون اهتزاز:

"هما ماتوا.. مش كدا؟".

تلاشت ملامح الراحة التي كانت تحتل وجهه وسحب كرسيًّا بجوار السرير واستقر نظره داخل عيني بعد جلوسه قريبًا مني..

"أنا آسف على الكلام اللي أنا على وشك أحكيه ليكي، بس أنا مضطر أعرفك دلوقت أحسن ما تسمعيه لما الظابط يحضر

علشان يتكلم معاكِ، علشان لو حصل لك أي صدمة تانية أعرف أتعامل معاها سريعًا".

كنت أعلم أن ما أنا على وشك سماعه أسوأ ما قد يقع على مسامعي في حياتي كلها، لم أستطع التماسك وبدأت دموعي في الانهمار حتى قبل الاستماع.

"والدك كان في الجهة اللي حصل فيها التصادم، ووالدتك ما لحقوش يطلعوها من العربية.. ولحسن حظك أو لسوئه أنتِ الوحيدة اللي طلعتِ عايشة من الحادثة، حصل لك كسر في رجلك اليمين وكدمات كتير جدًّا في جسمك، عملنا لك فحص شامل اكتشفنا أن حصل لك صدمة عصبية شديدة جدًّا غالبًا بسبب اللي شُفتيه وليس من الحادث نفسه، ومن شدة الصدمة أدت لإتلاف بعض الشرايين في القلب ودا اللي خلاكِ تقعدي في غيبوبة الكام يوم اللي فاتوا، ما توقعناش إنك تفوقي منها بالسرعة دي بسبب ضعف قلبك غير إن الصدمة النفسية إلى مريتِ بيها كانت سيئة جدًّا بس كأن فيه سبب مخليكِ لسَّا ماسكة في الدنيا.. هتفضلي معانا هنا ممكن كمان أسبوعين لحد ما نطمن عليكِ وإن شاء الله من بكرة هحدد لك معاد مع الدكتور النفسي في المستشفى".

"مش عايزة دكاترة.. مش عايزة حد، كفاية!! أنا عايزة أروح، ممكن تكلم أي حد ييجي يروحني! مش عايزة أقعد هنا!!".

صرخت بكلماتي في وجهه وانهرت باكية وأنا أكتم صرخاتي من الألم في وسادتي حتى ثار جنوني وأصبحت أُكسر وأُطيح بكل شيء حولي، وقع تحت يدي زجاج مُتكسر أمسكته وحاولت قطع شرايين يدي به، هجم عليّ الطبيب والممرضات معه لمنعي! ازدادت صرخاتي التي تحرق حلقي من شدة ألمي وتهُز أرجاء الغرفة حتى تجمع الناس في الخارج، ازدادت مقاومتي لهم حتى حقنتني إحدى الممرضات بمهدئ أرخى عضلات جسدي وهدأت نبرة صوتي معه..

" كنت سبتني أروح لهم.. مش عايزة أبقى هنا من غيرهم!"

شعرت بيدي الطبيب تُربت على رأسي بهدوء وهو يهمس لي بصوته الهادئ:

"اهدئي يا صغيرة، سيكون كل شيء على ما يرام".

كانت تلك الكلمات آخر ما وقع على مسامعي قبل ذهابي في نومٍ عميق.

****

محاولتي للانتحار ما هي إلا محاولة مني في إنهاء تلك المأساة، فماذا سوف يحدث لي أسوأ مما حدث! من سيكون التالي؟! لم أعد أستطيع التمييز إذا كان كل ما يحدث خيرًا، أم أنها لعنة مُلقاة عليّ تُصيب كل من يقترب مني ويحبه قلبي!

استيقظت في صباح اليوم التالي لأجد إحدى يدي مُقيدة في الفراش ويحاوطني أقارب والِديّ يتنازعون بأصوات منفعلة منخفضة في محاولة منهم لعدم ازعاجي لكنهم فشلوا، يتنازعون عن من سوف يأخذني عند انتهاء مدة إقامتي هنا وما أنا بفاعلة غير المشاهدة في صمت وتحول ملامح وجهي للوح ثلج خالٍ من التعابير.

كنت أُحاول إقناع نفسي أنه مهما ساءت الأمور سأتحمل وسأمُر خلالها وأتحسن مع الوقت وستصبح الأمور أفضل، لكن ما يحدث حقًّا أنه كلما تسوء الأمور أسوء أنا معها، تصبح طاقتي في التحمل أقل، تصبح قدرتي على التحسن أقل، تُستنفد قواي باستمرار مع عدم وجود مصدر لإعادة تجديدها، حاولت الاقتناع أن غدًا أفضل وأن عدم التفكير فيه سيقلل خوفي منه، لكنني الآن سأذهب للنوم كل ليلة وأنا أعلم أن ما مضى ليس إلا مجرد بداية وأن الغد دائمًا أسوأ.

* * * *

الحادي عشر من نوفمبر

"متأكدة مش عايزاني أكلم حد من أهلك ييجي ياخدك؟".

"متشكرة جدًّا يا دكتور، أنا بس محتاجة أروح مشوار الأول، وهما لو جم أخدوني أو عرفوا إني هخرج النهاردة مش هيسبوني أروح في أي مكان".

" بس دا ما يمنعش إنك محتاجة ترتاحي في البيت! إحنا فكينا الجبس آه بس المشي كتير هيتعبك، أنتِ لسَّا محتاجة كمان أسبوعين على الأقل في البيت علشان تضمني إنك خلاص بقيتِ تمام.. معاكِ رقمي لو احتاجتِ أي حاجة كلميني في أي وقت، وأهم حاجة خلي بالك من نفسك يا شمس!".

كانت أولى خطواتي بعد خروجي من المستشفى إلى منزل يوسف فلم يتبقَّ لي أحد غيره الآن في هذا العالم الملعون.

عند اقترابي من باب المنزل سمعت أصواتًا عالية خارجة منه بسبب تركهما للباب مفتوحًا واتضح صوت كلّ من يوسف وعلي عند اقترابي أكثر وهما يتجادلان:

"يعني إيه ما كنش فيه غير جثتين؟!".

"بسبب الانفجار اللي حصل ما لقوش غير بقايا جثث الأب والأم، ولحد دلوقت ما حدش متأكد إذا كانت شمس فعلًا عايشة ولا ميتة؟".

" وأنت ما قُلتليش الكلام دا بدري ليه؟! جاي تقول لي إنها ممكن تكون عايشة بعد كل الفترة دي؟! كنت على الأقل حاولت أدور عليها! كنت إديني أمل أعيش عليه يا علي!".

" ما كنتش أعرف!! والله صدقني ما كنتش أعرف.. أول لما عرفت جيت قلت لك".

دفعتُ الباب بخفة وتقدمتُ في اتجاههما، لاحظا وجودي في نفس اللحظة ووقف كلاهما والصدمة تعلو وجههما بعد ما كانت أصواتهما المنفعلة تعلو في المكان، لم أعد حتى أستطيع سماع صوت أنفاسهما.

"أنتِ لسَّا عايشة؟!"

بعد ثبات عيني لثوانٍ معدودة داخل عيني يوسف، وجهت نظري مبتعدةً عنه في اتجاه علي عندما وجه كلماته لي:

"أعتقد.. زي هو واضح!"

لم أكد أُنهي كلماتي حتى تحرك يوسف مقتربًا مني في عدم اتزان واضح حتى إنه كاد يسقط فمددت يدي سريعًا لمساندته حتى صلب طوله أمامي مباشرةً، رفع يده المُرتعشة لملامسة وجهي وفاضت عيناه بالدموع:

"وحشتيني! وحشتيني يا شمس!".

"أنت كمان وحشتني يا يوسف!".

" كنتِ فين؟ ما طمنتنيش عليكِ ليه؟".

صمت للحظات وأنا أتعمق في عينيه كمن تاهت منها الكلمات، لكن ما زادني حُزنًا فوق حُزني أنني أرى الانتشاء في عينيه من جديد!

"أنت رجعت لإدمانك من جديد؟".

ارتبكت عيناه ونظر إلى أخيه ثم أعاد نظره إلي وأومأ بتردد..

"بس هبطل خلاص.. مش هشرب أي حاجة تاني دي آخر مرة.. أوعدك! أنا كنت غضبان من غيابك، بس مش مهم خلاص، المهم إنك رجعتِ.. كل حاجة هتتصلح".

"بتوعدني تاني؟! أنا غبت أقل من شهر علشان أرجع ألاقيك رجعت زي الأول! في أقل من شهر يا يوسف ضيعت كل حاجة؟!"

"ما كنش بإيدي صدقيني، ما كنتش عارف أعمل إيه من غيرك!"

" تعمل إيه ازاي؟! أنت مش طفل مستني كل شوية حد يوجهه ويعرفه إيه اللي المفروض يتعمل! تصرفاتك دي هتخليني أضطر أبعد! أنا ما عنديش الطاقة اللي تخليني أتحمل أخسر حد تاني قدام عيني!".

"كنتِ مستنية مني إيه بعد ما وصل لي خبر موتك! أكمل في نفس الطريق اللي كنت ماشي فيه من الأساس علشانك؟!"

"كنت مستنية إنك تقدّر كل التعب إلى مرينا بيه وما تضيعوش في الفاضي في وجودي أو عدمه! ما كنش المفروض ترجع تبوظ حياتك تاني!!".

" أنتِ اللي مشيتِ! لما اختفيتِ فجأة أنا توهت!".

"بسبب كدا كنت عايزاك تمشي في الطريق دا علشان نفسك مش علشاني! علشان مهما حصل ما نوصلش للموقف اللي احنا فيه دلوقت!"

"ما تلومنيش يا شمس!"

"أنا عيلتي كلها ماتت يا يوسف، وكنت فاكرة إن أنت اللي فاضلي! بس أنا دلوقت ما عنديش استعداد أفضل معاك وجنبك

وأنا عارفة إن نهايتك بتقرب كل يوم ومش بعيد أبدًا تكون نهايتك نفس نهاية أخويا! أنا مش هستني المشهد يتكرر تاني وألاقيك تحت إيدي غرقان في دمك أو واقع على الأرض نتيجة جرعة زيادة وأنا واقفة مش عارفة أساعدك! أنا فعلًا مضطرة أمشي".

"ما تمشيش!".

أمسك بمعصمي لمنعي من الذهاب عند التفافي للمغادرة! كان يعلم أنني إذا غادرت لن أُغادر المكان فقط بل حياته بأكملها، أرى ذلك في عينيه بوضوح كما أفعل دائمًا أرى أيضًا الترجي والخوف، تكشفه عيناه كلما حاول الكذب أو عدم إخباري بشيء ما، لكن هذه المرة لم يكن يريد إخفاء شيء، كان يريد أن يخبرني بالكثير من خلال عينيه دون التحدث..

"أنا آسف! ما تمشيش تاني!".

****

أوصلني إلى منزل جدتي الذي أعتقد أنه سيصبح منزلي من الآن، وأخبرني أننا سنتلاقى لاحقًا لأروي له ما حدث خلال الفترة الماضية وأنهى كلماته باعتذارٍ متكررٍ عما فعل في غيابي وطلبه لأتناسى ما مضى وأنه لن يكرر الأمر مرة أخرى.

عند دخولي للبيت صُدمتْ جدتي بذلك وراحت تلومني على عدم إخباري لها بمعاد خروجي، وما هي إلا لحظات حتى رفعت سماعة الهاتف لتُهاتف خالاتي لتخبرهن بعودتي، أخبرتها بأنني متعبة ولن أستطيع انتظارهن.

ذهبت للاغتسال بمياه دافئة لتهدئة أعصابي التي لم تذق الراحة منذ وقت غيابهما أمام عيني، سطحت جسدي على فراش جدي الراحل، وبدأت تتوالى الذكريات في بالي حتى بدأت في البكاء ولم أكن أمتلك القدرة على السيطرة على نفسي.. نظرت إلى سقف الغرفة أتأمل الفراغ لأرى صور الراحلين عني: أخي محمود، جدي العزيز، ووالديّ.. أستطيع التنبؤ أنه بعد عدة سنوات سأضيف صورة أشخاص آخرين إليهم، فأصبح الألم يستوطن أجزاء قلبي ويرفض الخروج منه.

تذكرت محادثتي مع يوسف وانتفض قلبي خوفًا أن يكون هو التالي وأتى على بالي نظرات كلّ من يوسف وعلي عند رؤيتهما لي!

"أنتِ لسَّا عايشة!"

هل حقًّا يعتقد الجميع الآن أنني لم يعد لي وجود في تلك الحياة! ماذا عن محمد؟ هل يعتقد ذلك أيضًا! هل يهتم من الأساس إذا كنت حية أم ميتة؟! رغبتي في الذهاب إليه الآن والتحدث إليه أكثر من أي مرة سابقة.. أحتاج إليك، أحتاج إلى وجودك معي في ذلك الوقت بالتحديد، لأشكي لك ما حدث معي وأجد يديك تُربت على كتفي مواسيًا لي! لن يجعلني ذلك أتناسى أحزاني لكنه سيُهون ذلك الألم الذي يحتل منتصف صدري!

❊ ❊ ❊ ❊

محمد

العشرون من نوفمبر

أسير كل يوم وأنا أنظر إلى وجوه السائرين حولي لعلي أتلاقى بها، أُكذب الجميع وأُصدق نفسي، لم ولن أتقبل أبدًا فكرة ذهابها بتلك السهولة! لمَ الآن؟! ولما في ذلك الوقت!

أذهب كل مرة لدرس الرياضيات قبل معادي كالمعتاد وأنتظر رؤيتها تدخل كما كنت أفعل دائمًا، مَر ثمانية وعشرون يومًا على معرفتي لخبر وفاتك، لكني لم أُصدقه ولا لدقيقة واحدة!

رفعت نظري في اتجاه الباب عندما تعالت الأصوات من حولي لتقع عليها عيناي ثابتة في مكانها!! رأيتها تقف وهي تبتسم بخفة، وقليل من الألم يحتل عينيها، للحظات ظننت أنها مجرد أوهام داخل رأسي لكن الجميع ينظر إليها كما أفعل! قفزت إحدى صديقاتها لاحتضانها وبدأت في البكاء والتمتمة بكلمات غير مفهومة بين شهقاتها أدى ذلك لظهور الدموع المُتعلقة داخل عينيّ شمس لكنها تماسكت ومنعتها من الخروج.

سحبها المدرس خارج المكان لدقائق وعاد من جديد لتتبعه شمس وتجلس أمامي في مكانها المعتاد..

"نرحب بشمس إنها رجعت لينا بالسلامة! ونتمنى لها الخير دايمًا".

ليس حلمًا! إنها أمامي فعليًا، انتظرت شروقك يا شمس ثمانية وعشرين ليلة، افتقدت دِفئك!

عندما أنهينا وقت الحصة تجمع حولها الكثير من زملائنا، فوقفت أنا بعيدًا أُتابعها بأنظاري في عدم تصديق، أنها هنا! يراها الجميع وليست وهمًا!

ودعت الجميع وضمت كُتبها بين أحضانها وبدأت في السير مبتعدة عنهم، ساقتني قدماي للحاق بها، أسير خلفها في هدوء وأنا أتمنى ألا تلاحظ وجودي حتى وصلت أمام مدخل منزلها، ثبتت مكانها للحظات ثم التفتت ونظرت في اتجاهي! ارتبكت وحاولت الاختباء لكن لا جدوى فلقد رأتني بالفعل.. ابتسمت لي بخفة والتفتت وصعدت في هدوء تام.

****

عند عودتي للمنزل أغلقت على نفسي غرفتي وفتحت حاسوبي وأتيت بحسابها على الفيس بوك وأرسلت إليها دون تردد:

"ينفع نتقابل؟".

لم أنتظر كثيرًا حتى تلقيت ردها:

"ونتقابل ليه؟".

"عايز اتكلم معاكِ!".

"اتكلم هنا".

"الكلام اللي عايز أقوله ليكي مش هينفع هنا، لازم أشوفك!".

"طب على الأقل إديني وقت أفكر!".

"معايا تذكرتين لحفلة كايروكي هتتعمل في مكان على البحر كمان يومين، هستناكِ!"

"افرض ما وافقتش؟!".

"هتوافقي".

❋❋❋❋

مَر اليومان وأنا أنتظر على أحرّ من الجمر حتى أتى اليوم الموعود، ارتديت "جاكت جينز" أسود يُغطي نصف "السويت شيرت" الأبيض، وبنطالًا أسودَ، وحذاءً رياضيًّا أبيض، أضفت لمستي الأخيرة بوضعي لعطري المُفضل وأعتقد أنني أصبحت جاهزًا الآن لأهم أيام حياتي..

"أنا جهزت، هبعت لك موقع المكان".

"أنتَ إيه خلاك مُتأكد كدا إني هاجي؟!".

"لا أنا مش متأكد، أنا مجرد حاسس إنك هتيجي".

ها أنا أتجه للمكان المنشود وعند وصولي كانت هناك فتاة تتوسط المكان تُطرب الجميع بصوتها العذب، بحثت عن طاولة مقابلة للباب واتخذتها مكانًا لي حتى أستطيع رؤيتها عند دخولها..

دائمًا ما أنتظر دخولها منذ اليوم الذي اقتحمت فيه قلبي دون حتى المحاولة، فتحت الباب وأغلقته خلفها وأصبحت تملأ المكان داخلي بتفاصيلها الخلابة.

ها هي تخطو أولى خطواتها داخل المكان تخطف الأنظار دائمًا بجمالها الهادئ واستثنائها في تفاصيلها، كانت ترتدي الجينز وبلوزة طويلة تصل لنصف قدميها دون أكمام فوقها جاكت جلد وحذاء رياضي، وكان أجمل ما في الأمر أنهم يشتركون جميعًا في اللون الأسود، يكسر ذلك السواد لون شعرها الذي يتقارب لونه للناري.. ترفع نصفه العلوي وتترك النصف الآخر قليل التموج ينسدل ليصل لمنتصف ظهرها، تمتلئ يداها بالإكسسوار وعدة خواتم وترتدي قلادة مميزة تعبر عن الهلال فضية اللون.

لاحظتني سريعًا واتجهت ناحيتي لتجلس أمامي.. تبادلنا أطراف الحديث التقليدية وامتلأت وجنتاها بالاحمرار من استمراري المستمر للنظر خلال عينيها أثناء حديثها، عَم الصمت بيننا عندما وقع على مسامعنا إحدى الأغاني المميزة لـ "أم كلثوم".

عرضت عليها الوقوف خارجًا للاستمتاع بقليلٍ من نسيم الهواء أثناء الاستماع لتلك التحفة الفنية، أومأت لي موافقة لأتركها تسبقني بخطوة حتى استقرت في مكانها المُطل على البحر في هدوء تتأمل القمر الذي بالكاد أصبح بدرًا في سماء تمتلئ بالنجوم على غير العادة.

"إيه علاقتك بالقمر علشان يخطفك كدا؟".

"أنا علاقتي مش بالقمر بس.. أنا علاقتي بالليل وكل تفاصيله! زي صوت البحر ولون السما وبُعد النجوم ونور القمر، ما قدرش أقف قدامهم في أي وقت من الليل وما أتخطفش!"

"أنتِ كنتِ غايبة فين يا شمس؟!"

حركتْ جسدها لتكون مقابلة لي وهي تتحدث:

"أنت كمان وصل لك إني مت! قبل ما أجاوبك على سؤالي جاوبني أنت الأول.. إيه سبب اهتمامك المفاجئ بيا؟ فضول مثلًا؟!".

"مش اهتمام مفاجئ أبدًا هيختفي مع الوقت أو فضول مجرد ما أعرف هبطل أهتم، الموضوع له رواية تانية أكتر تعقيدًا من إني أقدر أوصفها بكل بساطة، أنا مهتم بيكي من فترة طويلة يا شمس!".

"محمد أنا مريت بحاجات الفترة اللي فاتت كانت فوق طاقتي، فـ اللي أنت بتحاول توصله ليا دا أنا ما عتقدش إني مستعدة ليه..."

قاطعت كلماتها التي على وشك قطع حبل الأمل الذي أتعلق به وسحبتها لضمها داخل صدري:

"أنا عارف كل اللي أنتِ عايزة تقوليه، عارف وفاهم إن ما فيش فيكي طاقة لأي حاجة وما عندكيش حاجة تديها لحد، بس أنا مش طالب منك أي حاجة غير إنك تكوني موجودة دايمًا جنبي بطيفك اللي كان دايمًا ونس ليا في غيابك! هساعدك تخرجي من اللي أنتِ فيه مهما كان، مش هسيبك يا شمس".

لم أكد أُنهي كلماتي حتى شعرت بيدها تُحاوط جسدي وسمعت شهقاتها المكتومة داخل أحضاني، لأُبعدها قليلًا لمسح دموعها عن وجنتيها وأُعيدها بين كتفيّ وأهمس لها لأُطمئن قلبها وأهدّئ من دقاته المُتسارعة..

"بحبك".

فور سماعها لذلك اشتدت قبضتها في الإمساك بي..

♫ هو صحيح، صحيح، صحيح الهوى غلاب! ~♫

♫ معرفش أنا، أنا ♫

♫ والهجر قالوا مرار وعذاب ♫

♫ والهجر قالوا، قالوا مرار وعذاب ♫

♫ واليوم، واليوم، واليوم بسنة ♫

♫ جاني الهوى من غير مواعيد ♫

♫ وكل مدى حلاوته تزيد ♫

- هو صحيح الهوى غلاب، أم كلثوم.

****

شمس

لم أتخيل أن يسير اليوم بذلك الشكل على الإطلاق، أن يعترف لي بما يحتويه قلبه لي بتلك السرعة! كان في اعتقادي أنه سيبدأ في التقرب لي بالتدريـج حتى يستطيع كل منا تحديد حقيقة مشاعره تجاه الآخر، لكن أعتقد أنه استوعب سريعًا أنه من الممكن أن يأتي الغد ولا يجدني فيه كما حدث من قبل، اختفيت حتى قبل أن يعي ما يشعر به حقًّا.

تتشابك أيدينا خلال سير هادئ في إحدى الطُّرق الفارغة يكاد يحل علينا منتصف الليل حتى كسر ذلك الصمت غير المبرر بيننا.

"مش غريبة إننا ماشين وصورتنا معكوسة على إزاز العمارات كدا؟".

"هي حاجة غريبة فعلا، بس حلوة! كأننا في مشهد من فيلم وفيه ناس ورا الإزاز بتتفرج علينا".

"طريقتك في التفكير مختلفة وحلوة جدًّا!"

ابتسمتُ بخفة وتحدثتُ سريعًا في محاولة لتغيير مجرى الحديث:

"بقولك إيه! ما تيجي نتصور!"

"فين؟ هنا؟"

" أيوة! قصاد إزاز من دول! علشان إحنا والناس اللي بتتفرج علينا نوثق اللحظة دي من الفيلم، ويبقى معانا ذكرى لليوم ده".

توقفنا أمام إحدى العمارات التي يعكس زجاجها صورتنا بوضوح، وقف بجواري والتفت ناحيتي وأحاطني بيده ليقربني منه، رفعت الهاتف لالتقاط الصورة فأمال رأسه ليُقبل جبهتي! أُلتقت الصورة على ذلك الحال وحُفظت في ذاكرة الهاتف كما حُفظت مع تفاصيل اليوم بأكمله داخل قلبي.

****

"كنتِ فين يا شمس؟! برن عليكِ من بدري!"

"ما أخدتش بالي يا يوسف، أنا آسفة".

" طب كنتِ فين؟".

"كنت برا مع صُحابي..".

"صُحابك؟!".

"كنت مع محمد يا يوسف".

"محمد زميلك؟ اللي كنتِ حكيتِ لي عنه؟!"

"أيوة هو".

"وأنتم من إمتى بتخرجكوا سوا ومرجعك متأخر بالشكل ده؟!".

"في إيه يا يوسف؟! إيه نبرة الصوت اللي بتتكلم بيها دي؟!".

"فيه إني حاسس إنك مخبية عليا حاجة".

" ... "

"أنتِ بتحبيه يا شمس؟".

"أنت إيه اللي خلاك تقول كدا؟".

"بتخبي عليا أنا يا شمس! دي مش غلطة تخافي تقوليها لي! مهما كان اللي بتعمليه ما تخبيش عليا، أنا ملجأك اللي ما ينفعش تهربي منه، المهم.. احكي لي عملتِ إيه النهاردة؟".

رويت له ما حدث مع احتفاظي ببعض التفاصيل لنفسي ليس خوفًا منه لكنها ذكريات خاصة لي فقط لا أريد أن يشاركني أحد فيها.

"يعني انتوا دلوقت متصاحبين؟".

"أيوة!".

"بس دا في نفس سنك! يعني كلها سنة أو اثنين ويطلع لك بميت عذر علشان ما يكملش، دا لو كملهم من الأساس! دا لسَّا عيل يا شمس!!"

" افهمني!! أنا عمري ما حسيت مع حد زي اللي بحسه معاه! بكون مبسوطة ومش بحس بخوفي من بكرة أو حتى بفكر فيه، بكون حاسة إني دايمًا بخير طول ما هو موجود، وإن مهما كان اللي شايله القدر ليا فبوجوده هقدر أعديه، ضعفي اللي بخبيه عن الكل حتى بيني وبين نفسي ظهر قدامه وفشلت إني أداريه، لما ببص في عينيه بحس إني مطمنة وكأني خلاص مش محتاجة حاجة من الدنيا غير إنه يبقى هنا! بقسم حزني معاه من غير ما أحس بتُقلي، بشوف نفسي في عينيه إني أحسن وأحلى واحدة في الدنيا كلها.. تفتكر واحد بينسيني كل المشاعر السلبية اللي جوايا وبيديني طاقة أكمل هقعد أتعب نفسي في التفكير إذا كان هيكمل ولا لأ؟، دا غير

إن هو اللي جه لحد عندي!! أنا عايزاك تتفهم دا! أنا عمري ما حبيت حد بالطريقة المختلفة دي..".

" أنا كنت موجود دايمًا علشانك، وما طلبتش منك أي مقابل غير إنك تفضلي موجودة بس أنتِ دلوقت بتحطي حاجز كبير ما بينا، أنا مش هقدر أجبرك على أي حاجة ومع إني مش مرتاح أبدًا ونصيحتي الأولى والأخيرة ليكي هي بلاش!! بس أنا هفضل دايمًا في ضهرك علشان لما يغدر تلاقي اللي يسندك".

خلق يوسف داخل عقلي طريقًا آخر ليذهب تفكيري إليه، أريد تكذيب ما أشعر به أن يوسف يمتلك مشاعرَ تجاهي كالتي أمتلكها تجاه محمد، لكن يظهر كل شيء بوضوح في نبرة صوته، غاضب، حزين، مهزوز..

أحتل ذلك تفكيري عوضًا عن التفكير في أجمل ساعات قضيتها مع محمد.

* * * *

(٥)

هل دائمًا يسبقنا الوقت؟! أم أننا عاجزون عن اللحاق به؟

محمد

الثاني والعشرون من نوفمبر

مَرت الأيام سريعًا حتى التحق كل منا بالكلية وأصبحنا قادرين الآن على رسم خطط مستقبلية لما حقًّا نريده، التحقت بكلية الهندسة والتحقت شمس بكلية التجارة وها نحن نتم عامنا الواحد والعشرين في سنتنا الثالثة في الجامعة.

ازدادت الخلافات بيننا مؤخرًا، وبدأ يتسلل البرود في ما بيننا.. في أغلب الأوقات ما تكون خلافتنا بسبب صديقها يوسف لأنه يحتل أغلب وقت يومها، مهما كان قربه منها أو قوة صداقتهما فأنا في النهاية رجلٌ تثور النار داخله بمجرد اقتراب رجلٍ آخر منها!

في بداية تعرفي عليه حاولت تقبل وجوده لكنه لم يفعل المثل، كلما جمعتنا شمس في مكانٍ واحدٍ دائمًا ما يحاول الاستهزاء بي مما يؤدي إلى ازدياد حدة الكلام بيننا حتى تسحب شمس أحدنا بعيدًا عن الآخر.

مشاعره تجاهها كانت واضحة لي كوضوح الشمس وكلما حاولت التحدث مع شمس في الأمر، دائمًا ما كانت تتجاهله أو تنكره وتميل دائمًا لتغيير محور الحديث.

لم يكن يحتل يوسف تفكيري كما يحتل تفكيري المستقبل البعيد، بعد تخرجي سألتحق بالجيش لما يقارب الثلاث سنوات،

بعدها يجب عليّ البحث عن عملٍ لبناء بيتٍ لأتزوج ولتأسيس عائلة خاصة بي بعيدًا عن أهلي، أعلم أنني إذا صارحت شمس بتفكيري الآن ستحترمه تمامًا وإذا طلبت منها الانتظار فلن تتردد في الموافقة، لكن ما أخاف منه أنني لا أستطيع الوفاء بكلمتي ليس لعدم قدرتي بل لأننا نتغير دائمًا مع الوقت، لا أعلم إذا مرت تلك الأعوام هل سأكون فعلًا حققت ما أنوي فعله لأستطيع تنفيذ كلمتي أم أنني سأُهدم أملها بي!!

"سرحان في إيه؟".

قاطعت شمس تفكيري عند جلوسها أمامي حيث اتفقنا أن نتقابل بعد أن ينتهي كلانا من يومه الدراسي..

"ها! لا ولا حاجة".

"عارف النهاردة إيه؟".

" إممم الأربع!".

" كالعادة طبعًا نسيت، النهاردة كملنا سوا ثلاث سنين".

" فعلًا! ما حستش بيهم خالص!".

" إمم، إنت كويس يا محمد؟".

" آه كويس بتسألي ليه؟".

"شكلك مشغول البال..".

"لو اتكلمت معاكِ في حاجة ممكن هتفهميني من غير زعل؟!".

"حاسة إنك هتقول كلام مش هيعجبني!".

صارحتُ شمس بما داخل عقلي وكلما أكملت حديثي استمر تغير ملامح وجهها من ابتسامتها الخاطفة لملامح خالية من المشاعر التي أعجزتني عن فهم ما قد يدور داخل عقلها.

"طيب علشان بس أكون فعلًا فهمت كلامك صح! أنت عايزنا نخلي علاقتنا مجرد أصحاب لحد ما تضمن ظروفك وتقف على رجليك، وبرضو زي ما بتقول تبقى فرصة لينا إننا ناخد فترة لنفسنا؛ لأن لو خلافتنا زادت هنخسر بعض، فهمتك صح مش كدا؟".

لم أجِبها واكتفيت بالنظر إليها، وشعور مزعج من تأنيب الضمير بدأ يحتلني، أعلم أنه ليس الحل الأمثل لكنه الأفضل لكل منا..

" وإنتَ في اعتقادك إننا كدا مش هنخسر بعض؟".

"افهميني يا شمس! أنا ما قدرش أديكي كلمة دلوقت وأنا مش ضامن إني أقدر أنفذها! دا غير إننا محتاجين نهدي الأمور ما بيننا شوية!".

" لا أنت إديتني كلمة فعلًا! إديتني كلمة في أول مرة نتقابل لما مديت إيدك ومسكت إيدي لأول مرة وبصتلي في عيني وقُلت لي مش هسيبك لوحدك أبدًا! كانت دي أول كلمة توعدني بيها وإنتَ دلوقت بتتخلى عني، إزاي تكتب النهاية في نص الكتاب قبل ما ينتهي فعلًا!

الطريقة اللي أنت فاكرها هتهدي الأمور ما بيننا ما هي إلا طريقة لأنك تخفي القصة كلها، تمحيها ولا كأنها حصلت، مجرد ما هتقطعها هتختفي، ساعتها بس أقدر أقول لك إن ما بقاش فيه

إحنا، هيبقى فيه أنا وإنتَ وكل واحد هيعيش في دنيا التاني ما لوش وجود فيها".

" أنا آسف يا شمس!".

"طبعا لازم تكون آسف! أي حد يغلط في حقي بأي شكل يقول لي أنا آسف! كأن مجرد كلمة تقدر تشيل الوجع اللي حسيته! قبل ما تمشي هتقول لي آسف كتكفير عن الذنب دا علشان لما تيجي تنام بليل يكون ضميرك مرتاح، بس أنا عايزة أقول لك كلمة واحد بس.. أنا مابنساش".

سحبت نفسًا طويلًا وأخرجته حتى تهدأ أو حتى لا تخونها عيناها وتبكي الآن..

" اسمع يا محمد! علاقتنا عمرها ما كانت ولا هتكون محدودة بمُسمى الصحاب، يا نكون يا ما نكونش ، وبما إنك بالفعل أخدت القرار، فأنا وجودي هنا دلوقت ما لهوش لازمة.. مع السلامة يا محمد".

لقد أحببتها حقًّا، سأندم على تركي لها وإفلاتي ليدها لا أستطيع قول عكس ذلك، لكني لا أستطيع الاستمرار معها وأنا لستُ متأكدًا إذا كانت خطواتي القادمة ثابتة، لأنها لو لم تكن سأغرق وأسحبها معي.

♫well you only need the lights when it's burning low♫

♫only miss the sun when it starts to snow♫

♫only know you love her when you let her go♫

♫only know you've been high when you're feeling low♫

♫only hate the road when you're missing home♫

♫only know you love her when you let her go♫

♫and you let her go♫

-Let her go ،Passenger.

❊ ❊ ❊ ❊

يوسف

الثاني من ديسمبر

توقعت فراقهما لكنني لم أتوقع انعزال شمس عن الجميع حتى عني، كلما حاولت التحدث معها أتلقى منها كلماتٍ باردة سطحية، أزعجني ذلك.. أزعجني كونها بعيدةً كل البعد عن كونها بخيرٍ وليس بيدي حيلة لمساعدتها، وفي كل مرة أحاول مقابلتها تجد عذرًا تعجزني عن مناقشتها فيه، حتى فاض بي الأمر فأنا لن أقف مكتوف الأيدي لفترة أطول..

"بقولك إيه يا شمس! ما تيجي نخرج؟".

"على فين؟!".

"وافقي أنت بس وما لكيش دعوة".

"ما ليش مزاج بجد يا يوسف، مش عايزة!".

"طيب بصي أنا واقف تحت البيت لو ما نزلتيش خلال ربع ساعة هطلع أنا، وبالمرة أتعرف على تيتة وخالتو.. إيه رأيك؟".

"إنت أكيد بتهزر!!".

لم تكد تفرغ من كلماتها حتى وجدتها تخرج رأسها من شرفة منزلها لتجدني أنتظرها، أشرت إليها بيدي مستعجلًا إياها..

" يلا مستنيكِ.. بقالي كتير ما شوفتكيش!".

ابتسمت لي وسحبت نفسها للداخل لتجهيز نفسها للنزول.. أعلم أنكِ حزينةٌ يا صديقتي، لكني سأحاول ألا يدوم ذلك طويلًا.

****

"اتبسطي؟".

"جدًّا! كنت فاكرة اليوم هيبقى ممل وهنكد عليك وهنروّح بدري، بس ما توقعتش أبدًا إنك تاخدني على الملاهي!".

"المرة الجاية ممكن أقولك جهزي شنطتك يلا بينا على دهب!"

"بجد؟ دهب دا أكتر مكان أنا نفسي أروحه!".

"بسيطة! نلم أصحابنا في الأجازة الجاية ونروح!".

"أعتبره وعد؟".

"اعتبريه وعد. فاكرة المكان دا؟".

" طبعًا فاكراه! أول مكان نتقابل ونقعد نتكلم فيه!".

"تفتكري ممكن ييجي اليوم اللي نبطل نقعد فيه هنا؟".

"ممكن.. لما ما يكونش لينا وجود في الدنيا دي، أعتقد دي الحالة الوحيدة اللي ممكن تخلينا نبطل نيجي هنا".

"ما تبطليش تيجي هنا حتى إذا ما بقاش ليا وجود، لأن وجودك هنا هيخليني أحس بونسك وأنا بعيد".

"بطل كلام أهبل، هنفضل نيجي هنا سوا على طول لحد ما نشيب وشعرنا يبقى أبيض وسنانا تقع ورجلينا ما تبقاش تشيلنا ونمشي نسند على بعض، هنفضل دايمًا مع بعض".

ضحكنا معًا حتى عاد الصمت ليحتل مكانه بيننا..

" ما تيجي نتسابق! اللي يوصل للرملة الأول هو اللي كسبان!"

"أنا موافق يلا بينا".

بدأتْ بالركض فورًا دون انتظاري، سبقتني كما هو متوقع بخطواتها الخفيفة والسريعة عكسي بالطبع، حتى توقفت فجأة

وبدأت تسعل بقوة وسقطت أرضًا.. هرولت إليها بأقصى سرعتي لأجدها نائمةً مقابلةً للسماء في صمت غير مفهوم..

"شمس أنت كويسة؟".

تجاهلت سؤالي وكأنها لم تسمعه..

"نجوم السما شكلها حلو قوي!"

تمددت بجوارها وشعرت ببرودة الرمال أسفلي لكنها سللت شعورًا رائعًا داخلي، وكانت السماء أجمل ما تكون، أخرجت هاتفي ووضعت إحدى السماعات ومددت يدي بالأخرى لها وبدأت تنبثق الموسيقى..

♫well ،I found a woman stronger than anyone I know♫

♫she shares my dreams ،I hope that someday I'll share her home♫

♫I found a love to carry more than just my secrets♫

♫to carry love ،to carry children of our own♫

♫we are still kids ،but we're so in love♫

♫fighting against all adds♫

♫I know we'll be alright this time♫

♫Darling ،just hold my hand♫

♫be my girl ،I'll be your man♫

♫I see my future in your eyes♫

-Perfect ،Ed sheeran.

نظرتُ إليها مع انتهاء آخر كلمات للموسيقى لأجدها تبادلني النظرات وتزيح السماعة وقامت للجلوس مواجهةً لي، قمت بدوري أنا الآخر مع ثبات تلك النظرات الصامتة لبضع من اللحظات كادت أن تكون دقائق حتى كسرت صمتها..

" اختيارك للأغنية مجرد اختيار عشوائي مش كدا!".

" بحبك".

لم أكن ألتمس جسدها لكني شعرت بالرعشة التي سارت خلاله فور سماعها ما قلته..

"يوسف.. أنا.. ".

"تتجوزيني يا شمس؟".

أردفتُ بينما أخرج من جيبي خاتمًا مميزًا اشتريته لها منذ عدة أسابيع لكني لم أمتلك الشجاعة قط لإهدائه لها..

"أنا محتاجة وقت.. محتاجة أفكر".

"هديكي كل الوقت إللي تحتاجيه، وهفضل دايمًا مستنيكِ".

"مهما هيكون قراري اوعدني إننا هنفضل صحاب!".

"مهما هيكون قرارك هنفضل صحاب".

❊❊❊❊

علي

"خير يا علي! موضوع إيه اللي أنت كنت عايزني فيه؟".

"قبل أي حاجة مش عايز يوسف يعرف أي حاجة عن الكلام اللي هقوله ليكِ هنا".

"لو جاي تتكلم في موضوع الجواز فأنا لسَّا ما أخدتش وقتي".

" ثانية واحدة! يوسف عرض عليكِ الجواز؟!".

"مش هو دا الموضوع اللي كنت عايزني فيه؟ أمال إيه هو الموضوع؟".

"يوسف تعبان يا شمس.. من فترة مش قليلة بدأ يشتكي من وجع في صدره وإنه في بعض الأوقات بتواجهه مشكلة في التنفس، تجاهل الأمر في بدايته لحد ما الموضوع بدأ يزيد معاه بكحة شديدة جدًّا وصلت إنه بيكُح دم! ضغطت عليه إننا نروح لدكتور وروحنا فعلًا وعمل شوية فحوصات وبعدها بحوالي أسبوع حالته اتشخصت إنها سرطان في الرئة".

تلقتْ كلماتي في ثباتٍ مُريبٍ لكن دائمًا ما تفيض العين حُزنًا وهي تحاول بائسة لعدم تساقط ذلك الحزن..

"هو قدامه فرصة يتعالج، مش كدا؟".

"قدامه فرصة بس هو رافضها! وصاني ما عرفكيش لأنه مش عايزك تضغطي عليه!".

" وإيه سبب رفضه؟".

"معتقد إنه لو اغتنم الفرصة أو لأ فهي نهايتها واحدة.. بس هو خايف، خايف يروح للموت فيتنسي بسبب إنه مشي من غير ما يسيب أي أثر حلو جوا الناس، قال لي إنه عايز يموت وهو مطّمن إنه على الأقل سايب وراه شخص واحد بس فاكر كل الحلو اللي فيه.. يوسف خايف يموت وإنتِ بعيد يا شمس، علشان كدا أنت كان لازم تعرفي".

تساقطتْ أحزانها بالفعل وأصبح جسدها يرتعش ويكاد يظهر صوتها بسبب اختناق أنفاسها من بكائها المكتوم..

"بس إحنا ما ينفعش نسيبه كدا! خلاص! هنسلم للأمر الواقع إنه مش هيتعالج ونهيأ نفسنا إننا ممكن نصحى في يوم من غير ما يكون موجود؟! طالما إني المفروض أسكت من غير ما أعرفه إني عرفت قل لي المفروض أعمل إيه علشان أقدر أساعده!!".

"بعد ما عرض عليكِ الجواز! أظن أنه مش محتاج غير وجودك".

في بداية الأمر سحبتك من يديك خلفي في نفقٍ مظلم لا تستطيع رؤية الضوء في نهايته، فقدت والدتك، ووجود والدك كان كعدمه، وأخوك الأكبر أسوأ ما قد يكون، كافحت للاستمرار في حياةٍ تشبه حياتي في اعتقاد مني أنها الطريقة الأفضل للقدرة على الاستمرار، لكننا لم نكن يومًا متشابهين، لم يكن اختلافًا واضحًا للأعين لكن اختلاف روحك كان آخر ما قد أفكر فيه، لم يرد على بالي أنك كنت تتمنى حياة أفضل أو أن ينتهي بك اليوم لتستلقي على فراشك تفكر في تغيير كل شيء، لم أفكر في ذلك حتى بعد ما

بدأت فعلًا في التغيير والسير في الطريق المعاكس لطريقي، بدأت ترى الضوء في نهاية النفق، بدأت تستنشق هواءً نقيًّا خاليًا من الأعباء المحملة على صدرك، بدأت أرى لمعانًا في عينك، بدأت فعلًا أرى حقيقتك، لم تكن يومًا سيئًا بل أنا جعلتك كذلك، وقبل أن تصل لنهاية النفق تسقط في حفرة أعمق من أن تستطيع الخروج منها.. لم ولن يفارقني الإحساس بالذنب في ما فعلته بك.

أعتذر أخي الصغير.. في بعض الأوقات محاولتك في الحفاظ على الآخرين خوفًا عليهم تنتهي بهلاكهم.

* * * *

شمس

ظلت دموعي تتساقط بلا توقفٍ حتى قادتني قدماي أمام منزل محمد، طرقت الباب وأنا لا أعلم لمَ أنا هنا! فتح لي وعَلت فوقه الكثير من علامات الاستفهام، سمح لي للدخول فورًا وبدأ يتساءل عن شكلي المبعثر وعينيّ المنتفختين من شدة البكاء، جلس بجواري يُربت على ظهري في محاولة لتهدئتي لكن دموعي لا تتوقف عن النزول..

"ممكن تهدي يا شمس وكل حاجة هتبقي كويسة!".

"ما فيش حاجة هتبقى كويسة، كل حاجة بتبقى أسوأ، أهلي ماتوا واحد ورا التاني قدام عيني، وإنتَ مشيت، ويوسف بيموت.. كل حاجة هتبقي كويسة إمتى!!".

أحاط كتفي بيديه وظل يُربت على رأسي دون التحدث، استمر بُكائي لفترةٍ مجهولةٍ بالنسبة لي حتى هدأت أنفاسي وتوقفت عيناي عن ذرف الدموع، كدت أغفو بين يديه من شدة إرهاقي ابتعدت عنه قليلًا ونظرت إليه بعيني التي ازداد انتفاخها لعدة ثوانٍ في صمتٍ تامٍّ..

"يوسف عرض عليّا الجواز! كنت ناوية أرفض بس لما عرفت بخبر تعبه كان لازم أدي لنفسي فرصة أفكر، من كتر تشوش أفكاري مع خسارته المحتملة لقيت نفسي هنا.. أنا مش مستنية منك غير كلمة واحدة هتوفر عليا إرهاق تفكير طويل جدًّا.. أستناك؟"

تحرك من جانبي ليترك مسافة بيننا وأشاح بأنظاره بعيدًا عني ليردف بكلماتٍ تمنيت أن أُصاب بالصم قبل سماعها..

"روحيله يا شمس".

" ممكن تعيد كلامك تاني لأنه تهيأ ليا إني سمعتك غلط!".

"أنا ما وعدتكيش بحاجة! ما ينفعش تعشمي نفسك بأمل مش موجود! روحيله.. خليكِ جنبه هو محتاجك وهيقدّر وجودك أكتر مني، على الأقل هو كان دايمًا اختيارك الأول كان دايمًا سابقني بخطوة حتى دلوقتِ سابقني، المشكلة مش فيكي ولا فيا المشكلة إن دايمًا ما فيش وقت! مش عارف أوصل لأنه كله بيجري ولما عملت زيهم كانوا وصلوا بالفعل وأنا حتى لسَّا ما وصلتش لنص الطريق.. متأخر كالعادة، ما بقتش عارف أنا بسابق نفسي ولا بسابق الوقت ولو قُلت لك استنيني مش عارف أنا هوصل إمتى! النهاية معادها مش متحدد لدرجة إني بقيت حاسس إني مش هوصل!! امشي يا شمس.. مكانك مش معايا".

"بس أنت وعدتني! وعدتني في كل مرة قُلت لي فيها إنك بتحبني! مش الحب وعد؟ وعدتني ليه بحب أنت مش قده؟ المجازفة في الحب مطلوبة علشان تحافظ على الشخصاللي بتحبه، دلوقت أنا جيالك لحد عندك بقولك امسك فيا، ما تسبنيش، الحقني.. أنا بتسحب بعيد عنك! لكنك واقف ثابت في مكانك، ما بتجازفش عشاني ليه؟!!".

لم أتلقَّ منه سوى صمتٍ باردٍ جعل تلك البرودة تتسلل لمشاعري أيضًا.

"هتسكت تاني! خلاص خليك ساكت.. عايزاك تفضل ساكت لحد ما ييجي اليوم اللي يتكرر فيه المشهد الاعتيادي وإنتَ قاعد مستنيني أدخل كعادتك.. بس المرة دي مش هكون لوحدي وهبص في عينيك بمجرد دخولي كعادتي بس علشان أشوفك مكسور بخسارتي".

سحبتُ حقيبتي وغادرت المنزل وأغلقت الباب خلفي بكل ما أوتيت من قوةٍ وأنا أُردد داخلي أنني لم أغلق باب شقته للتو بل أغلقت باب قلبي المفتوح على استعدادٍ لاستقباله في أي وقتٍ ليعود، لكنه أُغلق الآن وأصبح قراري أوضح ما قد يكون.

سحبت هاتفي وبحثت سريعًا عن رقم يوسف ورفَعتُ الهاتف على مسامعي ليقاطع صوت الرنين صوته الأجش لأردف بلا ذرة تردد..

"أنا موافقة".

****

حسن

أخبرني أحدهم أن الحب يصلح كل ما هو مكسور، لكنه لم يخبرني أن لا شيء يصلح ما يكسره الحُب.

"يعني إيه حُب؟".

تردَّد على بالي هذا السؤال بشكلٍ ملحوظٍ مؤخرًا.. هل للحب شكلٌ واحدٌ ومعنًى واحدٌ مع اختلاف التفاصيل؟ أم هل للحب أشكالٌ كثيرةٌ قد نكون مررنا بها كلها أو ما زالت في البداية؟

من وجهة نظري كشخصٍ لا يفقه شيئًا في العلم النفسي أعتقد أن **"الحب ملاذ"** بمعنى أوضح إني حبيت شخصًا ما لدرجة إني شفت فيه ملاذي من بشاعة العالم، مهما كان اللي بيمثله الشخص دا في حياتي.. حتى الآن لم يصادفني ذلك الشخص اللي أقدر أوصفه بأنه ملاذي الخاص، مهما وصلت درجة حبي لأي شخص في حياتي حاليًا لكني ما لقتش معنى الحب الحقيقي بالنسبة ليا..

ومن هنا أقدر أقول لك إن الحب ليس إلا مجرد نسبة وتناسب تختلف معاييره من شخص لآخر..

معايري ليست الأفضل ولكنها الأفضل لي.. أتمنى حقًّا أن أجد في ملاذي ما يميزها عن الآخرين كمثلًا عندما اتطلع لعينيها أرى نفسي استثناء منفردًا عن الجميع داخلها، وتظهر تلك اللمعة الملفتة للقلب كلما تلاقينا، وأن ترى محاولاتي المتكررة في الانتحار التي تركت آثارها في أنحاء جسدي إنها محاولات متكررة للبقاء في

ذلك العبث غير المنتهي، وكلما تراني مبعثرًا ويحتل الظلام عينيّ وعدم قابليّتي للاستمرار أن تجذبني داخل أحضانها الدافئة في صمت لا يسمع فيه سوى دقات قلبٍ خافتةٍ، أن تتحمل تقلباتي المزاجية وانفعالاتي غير المبررة وشدة غيرتي، أريد فقط من ملاذي أن يتقبل انطفائي قبل كل شيء.

وفي المقابل سأخلق طاقة من الفراغ وأقضي كل يوم معك كأنه الأخير، ستكونين أول أولوياتي، ستكونين أجمل ما مر على عيني، سأرى كل ما تراه عيناكِ عيوبًا جمالًا، سأتواجد دائمًا معك، وستتواجدين دائمًا داخلي، لن تفارقي قلبي ولا عقلي، لن أفلت يديكِ مهما زادت الأشواك بيننا، سأضمّك داخلي كلما حاولتِ الابتعاد، وكلما أخذتِ خطوة ناحيتي سأضاعف خطواتي لكِ، سأكون دائمًا هنا فقط أنتظر وجودك لأُهدي لك كل ما بداخلي.

"قل لي يا دكتور، كنت بتحب مراتك؟".

"أنا الدكتور يا حسن مش المريض!".

"مش شرط نلعب دور الدكتور والمريض علشان تتكلم معايا، ممكن نبقى مجرد أصدقاء ونتبادل أطراف الحديث..".

"مراتي كانت جواز صالونات".

"فعلًا! يعني عمرك ما حبيت قبل الجواز.. أو يمكن بعده!".

"حبيت بنتي وأظن دا كفاية".

"لا لا أنت فاهم قصدي! يعني حضرتك تقريبًا عديت الـ ٦٠ سنة وعايز تقنعني إن عمر ما الحب دب في قلبك؟ ما صدقش لا".

"حبيت طبعًا.. مرة، بس ما كنش مكتوب له أبدًا إنه يكمل".

"وإيه السبب؟".

"فرق السن بينا ما كنش قليل بس مع ذلك تجاهلته وحاولت أتكلم معاها مرة والتانية وحاولت معاها بكل الطرق الممكنة بس دايمًا كان ردها بالرفض مهما كان اللي عملته أو قُلته، لحد ما قررت في يوم أحطها في أمر واقع ورحت اتقدمت لأهلها..

كانت برا البيت ولما رجعت وشافتني وعرفت سبب وجودي أهانتني بطريقة غير مقبولة قدام أهلي، وبدأت تروي ليهم كل محاولاتي إني أقرّب منها وإنها دايمًا كانت رفضاني، أهلها طبعًا وقفوا في صفها واطردت أنا وأهلي من بيتها..

طبعا مسلمتش من كلام أهلي اللي استمر فترة طويلة وقتها ولما بدأوا يتناسوا الموضوع بدأت أنا كمان أتناساه لكني لم أتناساها هي شخصيًّا، ولكن دا ما منعنيش إني اتجوز وأجيب بنتي اللي هوّنت عليا بوجودها حاجات كتير".

" أنا مقصدش ألومك بس مش كان من المفترض إنك تقبل رفضها من الأول؟".

"القلب غلاب، لما بيحب بينسى حاجة اسمها منطق، كان المفروض أعمل حاجات وما عملش حاجات تانية، بس مين يرجّع بينا بالوقت علشان نصلح المكسور؟".

"ما حاولتش تتواصل معاها تاني بأي شكل بعد اللي حصل!"

"محاولتي جات متأخرة شوية! قعدت حوالي ٨ سنين بتابع أخبارها من بعيد من وقت للتاني وشغفي ناحيتها عمره ما اختفى، ولما قررت أستجمع شجاعتي وأحاول أكلمها تاني بسبب إن الشوق

غلبني وقربت أنسى ملامحها من كتر غيابها عني، ساعتها عرفت إنها ماتت! ما صدقتش الخبر غير لما رُحت ووقفت بنفسي قدام قبرها، حسيت بتضارب غريب في مشاعري خلاني أقف قدامها لما يقارب الساعتين عاجز عن الكلام! اتحركت بعدها من مكاني وأنا عارف إن مهما كان اللي حصل فلازم يتنسي".

"هل الحب ممكن يوصل الشخص إنه يعمل حاجات ما كنش يتخيل إنه يعملها بطرق سلبية! زي القتل مثلًا!".

"طبعًا! الحالات دي منتشرة جدًّا ومر عليا حالات كتير مشابهة أثناء شغلي في المستشفى وزي ما فيه ناس بتأذي فيه ناس مُتأذية.. أفتكر زمان إن كان عندي مريض كان سبب وجوده في المستشفى إن مراته ماتت ومقدرش يستحمل فراقها اتجنن وحاول يؤذي نفسه كتير واتخلى عن ابنه الرضيع لأن مراته ماتت وهي بتولده، كان دايمًا بيقول لي إنه كان مغيب عن وجعها فلما فارقت الدنيا وجعها اتنقل له وإنه ما عندوش نفس طاقتها علشان يقدر يعيش ويتعايش بيه، مات منتحر بعد دخوله المستشفى بفترة قصيرة جدًّا.. الحب سلاح ذو حدين ومهما حاولت تتحكم فيه فهو قادر إنه يغلبك في كل مرة".

****

(٦)

يخفي القدر ما نحن غير قادرين على توقعه.

شمس

أسمع بوضوح صوت الموسيقى الصاخبة وأنا لا زلت في السيارة لم أخرج منها بعد، لم أشعر بخروج يوسف من جانبي إلا عندما فتح الباب المقابل لي ومد يده ليساعدني على النزول فليست من عادتي ارتداء الكعب العالي لعدم التوافق بيننا، كنت أرتدي إحدى الفساتين المشابهة لفساتين سندريلا لتساقط أكتافها وكان يتقارب لونه للون السماء في الصباح الباكر، وغلبت البساطة على شكله فلم يكن حجمه مبالغًا فيه، قبل ساعات من الآن اصطحبتني بنت خالتي لتصفيف شعري ووضع مساحيق التجميل التي دائمًا ما كنت أفشل في إتقان وضعها، عندما انتهيت من لمساتي الأخيرة وقفت أمام المرآة للنظر لإطلالتي الأخيرة قبل الخروج، في تلك اللحظة شعرت أن هناك شيئًا ما ينقصني! شعرت بفرحتي المتناقصة لأن تلك الإطلالة الرائعة وتلك الليلة التي لن تُنسى ليست من أجل الرجل المنشود.

يوسف أفضل رجل قابلته في حياتي لكن هوى القلب غلاب وما باليد حيلة، لكنه لا يستحق مني أن أخطو إليه بعد عدة دقائق ولا زال داخلي آثار لرجلٍ آخر، نفضت أفكاري بعيدًا وتركتها تذهب مع الرياح التي قابلتني عند فتح الباب لأجده يقف منتظرًا خروجي، فقررت أنه منذ تلك اللحظة سأهب أفكاري ومشاعري لذلك الشخص الذي طالما انتظر تلك اللحظة منذ يوم لقائنا، له هو فقط.

ها نحن الآن نقف أمام الباب المغلق حيث يوجد خلفه الكثير من الناس الذين تمتلئ قلوبهم بالسعادة من أجلنا، أستطيع سماع دقات قلبي بوضوح من شدة توتري ورعشة يديّ التي لا تتوقف، هذه المرة الأولى التي سأكون فيها في مكانٍ مليءٍ بهذا الكم من الناس وأيضًا أكون أنا محط أنظارهم!

"ممكن أمسك إيدك؟".

"عايزة تمسكي إيدي لأنك خايفة ولا لأنك فعلا عايزة تمسكيها؟!".

أردف مازحًا لكني لم أكن في الوقت الذي يسمح لي بالمزاح من شدة قلقي..

"خلاص مش عايزة.. انسى الموضوع".

شعرت بنظراته ناحيتي ويده التي اتجهت للإمساك بخاصتي حتى قبضت عليها بقوة بمجرد ملامسته لي في محاولة لتهدئة أنفاسي المتسارعة بوجوده بجواري..

فُتح الباب لتسلط الأضواء علينا حالها كحال الأنظار، اختلطت الأصوات الصادرة من حولنا من موسيقى صاخبة وزغاريط الأهالي والأصدقاء، أرى السعادة تغمر أعين الجميع حتى توقفت أنظاري عند تلك الأعين الباهتة الخالية من التعابير.

كنت أعلم أنني سأراه ينتظر دخولي، كنت أعلم أنه سيأتي ليتأكد بنفسه أنه أصبح ماضيًا.. تجاهلت وجوده ووجهت نظري ليوسف؛ لأرى سعادة قلبه من خلال عينيه جعلت الطمأنينة تغمر

قلبي، بدأ يتلاشى التوتر وبالكاد اعتدت على المكان حتى ألبس كل منا دبلة محفور عليها اسم الآخر.

وقف أمامي مع بداية أنغام موسيقى هادئة دافئة ومد يديه في اتجاهي..

"تسمحيلي بالرقصة دي يا هانم!"

♫ في قلبي مكان، ما كنش بيوصل له إنسان، لأنه أمان ♫

♫ ما كنش بيدي حد أمان، فتحته أنا ليك ♫

♫ دخلته أنت وقفلت عليك ♫

♫ بقى ملكك ولا قبلك ولا بعديك ♫

تمايلنا مع الأنغام التي اتخذت مكانها في قلبي، عندما لفت نظر يوسف تحرُّك أحدهم متجهًا للخروج، لم أعتقد أنه لاحظ وجوده منذ البداية، لكنه قربني منه أكثر حتى أصبحت أُرخي رأسي على كتفيه، مع كل خطوة كان يخطوها محمد خارج المكان كان ينتزع حُبه معه حتى اختفى عن أنظاري وكذلك من داخلي.

♫ خليني معاك، دا أنا راحة قلبي معاك ♫

♫ هو اللي يحس هواك، في إيه بعده يكفيه ♫

♫ من بين الناس، أنا عشت معاك إحساس ♫

♫ بعد ما جربته خلاص، مقدرش أعيش غير بيه ♫

لم أشعر بنفسي حتى وجدت الدموع تتساقط من عيني، حاولت مسحها بنفسي قبل ملاحظة يوسف لها لكني وجدته يبعدني عنه في هدوء ويحاول مسح دموعي دون تخريب مكياجي وتعمق في النظر إلى عيني وقبّل رأسي وأعادني بين كتفيه وهمس ليطمئن قلبي ويهدئ من دقاته المتسارعة..

"بحبك".

فور سماعي لذلك اشتدت قبضتي في الإمساك به..

♫ بحس معاك، حاجات مش حلوة إلا معاك ♫

♫ بطعم هواك، وطالعة من جواك ♫

♫ ترد الروح، تنسّي القلب أي جروح ♫

♫ أنا ملكك، وأديني قُلتها بوضوح ♫

- في قلبي مكان، محمد محسن.

****

حسن

الثاني عشر من مارس

كان يسود الصمت بيننا ويعلو صوت الأمواج، يجلس كلانا على الرمال الباردة في نهاية الليل..

"نجوم السما شكلها حلو قوي".

اتجهت أنظاري إليها ثم للسماء ودار في بالي كيف تتكرر الأحداث مع اختلاف الوقت والأشخاص؟!

"قل لي يا حسن، لو فكرة إننا نروح للنجوم ممكنة، هتاخدني لهناك؟".

"بس هي مش ممكنة..".

"جاوبني بس.. لو ممكنة هتاخدني للنجوم!".

"هاخدك لأي مكان قلبك يتمناه".

تلك الابتسامة التي تُرسم على وجهها بعد سماعها لكلماتي أجمل ما قد تقع عليه عيناي!

"قولي لي أنتِ بقى، المكان هنا أحلى ولا المكان اللي اتقابلنا فيه أول مرة؟".

"هنا طبعًا! لما بقعد قدام مكان فيه بحر بحس إن روحي طايفة ما بينه وبين السما".

"تعرفي إن في كل مكان من الإتنين بدأت قصة حب مختلفة! بس واحدة منهم كملت والتانية ما كملتش".

"هو دا السبب اللي بيخلي الأماكن دي مميزة بالنسبالك؟"

"مش الأماكن، الناس اللي عاشت قصص الحب دي.. كنت بتمنى أقابلهم".

"والقصة اللي بدأت هنا كملت ولا لأ؟!".

"لأ.. للأسف ما كملتش".

"إيه رأيك لو اخترنا لينا مكان يبقى مميز ليا أنا وأنتَ بس؟!"

"ما عنديش مشكلة! فيه مكان معين في بالك؟!"

"أندريا".

"أندريا! دا مكانه فين؟".

"مش هتعرفه لأنه مش هنا مكانه في المنصورة، كل اللي بيميز المكان دا إن ريحة أيام زمان لسا عايشة جواه، يمكن مر عليه أكتر من ١٠٠ سنة ولسا موجود بحالته اللي اتبنى عليها، مهما شفت ورُحت أماكن تانية هيفضل المكان دا مميز بالنسبالي لأني قضيت فيه أيام مميزة..

لو في يوم يا حسن ضليت طريقك وتهت في الدنيا وما لقتش اللي يدلك، ابقى تعالى على هناك هتلاقي ونسي دايمًا مستنيك يدلك".

"أول مرة أعرف إنك قضيتِ وقت برا إسكندرية".

"والدتي كانت من المنصورة ولما تعبت طلبت إنها تروح تقضي شوية وقت وسط أهلها، فَرُحت معاها لأن والدي شغله كله هنا

وكان صعب شوية إنه يسيبه وييجي معانا، بس سيبك من الكلام دا.. تيجي أتوّهك معايا؟".

"تتوهيني".

"بص شايف النجمة اللي هناك دي؟ اللي لونها بهتان وبتعافر علشان تنور! أهي دي تشبهني تمام!".

"مش فاهم!".

"بص يا حسن كويس وأنتَ هتفهم، وركز في كلامي لحد الآخر لأنك أنت سبب التوهة ونهايتها.. هات إيدك كدا!".

أصابني التشوش من كلماتها غير المفهومة وطلبها غير المتوقع، لكنها لم تتلقَّ مني ردًّا سوى إنني مددت يدي إليها منتظرًا سماع شيء يفهمني ما تعنيه.

"لما إيدك لمستني كدا حسيت كأني وصلت لنهاية الحرب مع الدنيا، زي شمس جه وقت غروبها أو بحر موجه أخيرًا هدي بعد ما انزاح من على كتافه حمل هموم الناس وحكاويهم، حسيت بمجرد إني مسكت إيدك إنك القشاية اللي متعلقة فيها وعمرها ما هتغرَّقني.

تعرف! كان نفسي أجرب السجاير والحشيش وأدمن القهوة وأحفظ مزيكا وأميل جسمي عليها وأظبط عدد ساعات نومي وأقعد كل ليلة على شط البحر أعد النجوم اللي عمري ما مليت من البص عليها، وكان نفسي البحر يشتكي لي زي ما أنا بشتكي له، وأهرب.. أهرب ليك..

ما فيش حاجة من دول حصلت غير إني دلوقت بهرب ليك! أنت بقيت أمنية كل ليلة قبل ما أنام، إن بكرة ييجي وإنتَ موجود".

"أنا مستهلش يا ليلى! أنا آسف بس أنا مستهلش مشاعرك دي!"

"أنا بحبك يا حسن".

أردفت بآخر كلماتها لتقترب مني وتتلمس وجهي بيديها الدافئتين وتضع على أطراف شفتي قُبلةً تفرغ فيها جمال مشاعرها تجاهي! ابتعدت قليلًا لتتعمق في النظر لعينيّ لدقائق صامتة لتقف وتتحرك مبتعدةً، لتتركني مبعثرًا أثناء مشاهدتها تسير موازيةً للبحر بفستانها الخفيف على جسدها النحيل بثبات فشلت رياح البحر في إخلاله.

تختلف طرق التعبير عن الحب بحسب اختلاف درجاته والأحداث الجارية بين الطرفين، يمكن الاعتراف بالحب عن طريق لفظها فقط بكل بساطة، أو من الممكن خلق أجواء رومانسية ملامسة للقلب، أو عن طريق كتابة رسالة بخط اليد غير المرتب، المبعثر كبعثرة المشاعر المصاحبة للكلمات التي يحتويها، يمكن إهداء الموسيقى أو كتابة الشعر، أو من الممكن كتابة رواية.. مهما اختلفت الطرق ومهما اختلف الرد تظل لحظة الاعتراف بالحب الذكرى الأكثر تميزًا.

♫ زيك أنا، مقسوم ما بين الضفتين ♫

♫ببعد ساعات وساعات يرجعني الحنين ♫

♫ أوقات بحس إننا شمس وقمر ♫

♫ طريقين سفر ما بيتلاقوش ♫

♫ إغراب ما بين كل الوشوش ♫

♫ وساعات بحس إنك أنا ♫

♫ فاهمة حروفي والسكات ♫

♫ سامعة غنايا وكل الآهات ♫

♫ ويخدني جوا عنيكِ سحر ودندنة ♫

♫ وساعات غناء، وساعات دموع ♫

♫ متعلقة في حضن الغُنى ♫

♫ بس الأكيد، لو كنت أقرب ليّا مني ♫

♫ أو ما بينا سنين فراق ♫

♫ روحك هتفضل طيف يلازم سكتي ♫

♫ غنواية ساكنة في وحدتي ♫

♫ عمري اللي لسا ما عيشتوش ♫

- زيك أنا، مسار إجباري.

****

شمس

"Happy anniversary"

صرختُ في آذان يوسف من شدة سعادتي بإتمامنا عامنا الثاني معًا، حيث كانت تحمل تلك الأعوام الكثير من الفرح والحزن، السعادة والألم.

اعترف يوسف لي بشأن مرضه بعد عدة أسابيع من يوم خطبتنا لاستمراري في الإلحاح عليه للذهاب للمشفى بسبب ملاحظتي عليه أعراض غير اعتيادية وغير مطمئنة، وبدأ في العلاج بعدها بفترةٍ ليست بطويلةٍ لضغطي أنا وأخوه عليه لعدم الاستسلام بتلك البساطة لمحنة قابلة للزوال، ولأن هناك من يهتم لأمره مهما كان ومهما سيكون ويستحق أن يعطي نفسه فرصةً للمحاولة.

مر في البداية بفترة عصيبة وتوسع تأثيرها علينا أيضًا، لكن كلما مرت الأيام تحسنت حالته حتى أصبح يتردد الآن على المشفى للمتابعة فقط مع تناول القليل من العقاقير لإخفاء نوبات ضيق التنفس التي تراوده من فترةٍ لأخرى.

"مش هنخرج ولا إيه؟".

"مش عارف يا شمس، شكلنا هنأجلها النهاردة، حاسس إني تعبان".

" تعبان؟ ما لك؟ حاسس بإيه؟".

"أنا لسَّا جاي من عند الدكتور من شوية لأن نتيجة الفحص طلعت".

عندما بدأ التحدث ظهر صوته أجشَّ مهزومًا أكاد أجزم أن عينيه تطفو في دموعه..

" المرض ظهر في جسمي تاني يا شمس! تعبنا كله ضاع، هبدأ كل حاجة من الأول مرة تانية، والدكتور حذرني إن نسبة انتشاره تضاعفت يعني في احتمال إني حتى لو بدأت علاج تاني ما يجبش نتيجة".

كانت كلماته أبعد الاحتمالات التي وردت على بالي! حاولت تجاهل تشتت أفكاري وترتيب كلماتي وتهدئة نبرة صوتي:

"خير يا يوسف! أنا متأكدة إنه خير! هنعمل كل حاجة علشان نتغلب على المرض دا مهما لزم الأمر، هنروح للمستشفى وهنعرف المفروض نعمل إيه ونبدأ نعمله ولو احتجت تتحجز فترة مش مشكلة هنعمل كدا، ما تقلقش يا يوسف هساعدك تطلع من كل دا، أنا معاك!"

"أنا بموت يا شمس! ما بقاش عندي طاقة أحاول بيها، وحتى لو حاولت النهاية واحدة! أنا معدش باقي ليا غير كام شهر مش هقضيهم ما بين الجلسات والمستشفيات ونومة على السرير والأدوية والعلاج! أنا مش هعمل كدا لا في نفسي ولا فيكم! مش هخليكم تمروا بكل دا من جديد! أنا بدأت أول مرة بيكي وعشانك بس أنا خلاص تعبت من كتر ما بحاول أبقى كويس والعلاج مش بيساعدني كفاية، وجودك هو السبب الوحيد اللي بيخليني أحسن".

"طب اسمعني.. هنحاول لآخر مرة، آخر مرة ومش هتكلم معاك بعدها تاني، علشاني يا يوسف.. ما تسبش نفسك تتسحب بعيد عني!".

"أنا آسف يا شمس بس أنا خلاص أخدت قراري مش هدخّل الكيماوي جسمي تاني، هعيش الفترة الجاية كل يوم كأنه الأخير، عايزك بس تفضلي جنبي، علشان لما ييجي وقتي.. أمشي مبسوط".

تجد نفسك في نهاية الطريق حتى قبل أن تلحظ متى بدأ كل ذلك! أين كنت، وكيف وصلت إلى هنا، يحدث كل شيء بسرعة، يمر الوقت أسرع من أن تلاحظه، تكون اليوم في أشد أوقاتك سعادة في حين أن الغد يحمل لك الكثير من الألم، لا تعلم لماذا ولا كيف، لكنك تجد نفسك في نهاية طريق لا يوجد عليه أحد غيرك، وتمتلئ بما أنت غير قادر على فهمه.. تمتلئ بالفراغ.

****

الواحد والعشرون من ديسمبر

"إيه اللي حصل؟".

"جاله نوبة ضيق تنفس بس كانت غريبة جدًّا المرة دي، فضل يحاول يتحكم في نفسه بس أصبح أسوأ لحد ما وقع على الأرض قاطع النفس خالص!".

" طب هو عامل إيه دلوقتي! والدكتور قالك إيه؟".

"مضطرين يحجزوه فترة".

"مش مشكلة طالما دا أحسن ليه، المهم إنه يبقى كويس وخلاص".

"بس يا شمس! هو ممكن ما يتحسنش!".
"تقصد إيه يا علي؟!".
" معدش في إيدينا حاجة نعملها غير إننا ندعيله".

تراخت قدما الأكبر الذي لم أتوقع ولو للحظة أن هناك ما يمكنه إسقاطه، استند بيده على الجدار المجاور له ليجلس على أحد الكراسي المجاورة للغرفة التي يرقد داخلها سبب انهياره الأول والأخير وغطى وجهه بكفتي يديه، يمكنني القول الآن إنه عند انهيار أحد أعمدتك القائمة مهما كانت قوتك ستجد نفسك تنهار معها.

وقفت أسرق نظرات ليوسف النائم في ثباتٍ مريبٍ من خلف زجاج باب غرفته حتى إنني لا أمتلك الشجاعة الكافية لدفع الباب والدخول للاقتراب منه، تساقطت دموعي بلا وعي حاولت التماسك ومنعها من الاندفاع للخارج لكن ليس هذه المرة، سحبت نفسي سريعًا لأقرب دورة مياه لأسقط باكية أرضًا ويعلو صوت بكائي، ضممت قدمي لصدري ودفنت رأسي بينهما ولا يكف شعوري عن الإحساس أن أسوأ اعتقاداتي ستتحقق اليوم، وأنني في الغد سأستلقى على فراشي وأنظر إلى سقف غرفتي لأجد صورة يوسف بجوار صورة من ذهبوا قبله.

الحياة ليست عادلة، كان يجب أن أعلم منذ البداية أن لا مكان للحظ في حياتي، وأن لعنة الفراق كتبت على جبيني منذ يوم ولادتي، كلما أفرطت في حب أحدهم أراه يغادر أمام عيني، وقدماي ثابتة في الأرض عاجزةً عن استبدال الأماكن لأذهب أنا ويبقى هو،

كُفي عن العشق، لحق الموت كل من داب قلبك في حبهم، لكني دائمًا ما أعي كل شيء بعد فوات الأوان.

تشتت أفكاري عند سماعي لدقات على الباب الخارجي لدورة المياه، لأنتفض سريعًا من مكاني لمسح دموعي وتعديل ملابسي للخروج..

" يوسف صحي.. وطالب يشوفك".

استجمعت أنفاسي المتقطعة وحاولت عدم إظهار الاهتزاز في عيني ورسمت ابتسامة مزيفة على ملامحي واتجهت إلى غرفته، وقفت أمام الباب للحظات لأسرق نظرةً خاطفةً له قبل أن أدفع الباب وأدخل، التفت إلي فورًا مما جعلني كلما اقتربت منه أصبحت علامات الإرهاق على وجهه واضحةً لي، تلك وبكل وضوح أسوأ حالة يمكنني رؤيته فيها، تغيرت ملامحه من شدة تعبه وامتلأ السواد تحت عينيه وتحول لون بشرته إلى لونٍ ضبابيٍّ باهتٍ كانعدام الدماء في وجهه.

سحبت كرسيًّا للجلوس بجواره وتحركت يداي ناحية خاصته لأمسح عليها بهدوء ورفعتها لأترك عليها قبلة تساقطت بجوارها دموعي التي عجزت عن حبسها داخلي، ثبت أنظاري داخل عينيه القاتمة التي تحاوطها مياه تَعكر بياضها..

"هتوحشيني يا شمس".

"إنتَ ناوي تروح في حتة من غيري؟!".

"مش هينفع أخدك معايا".

"ومش هينفع تمشي وتسبني وراك".

"من يوم ما شُفتك وأنا مش قادر أمشي وأسيبك ورايا، لكن المرة دي أنا مضطر".

"ما تتكلمش كأنك بتودعني! ما تتعبش نفسك في الكلام خالص، وأنا هفضل هنا جنبك هسهر معاك للصبح، وهعمل لك كل اللي أنت محتاجه".

"أنا محتاج أتكلم، ومحتاجك تسمعيني".

"اتكلم، أنا دايمًا هنا ودايمًا سمعاك".

" كان نفسي أرقص معاكِ رقصة أخيرة قبل فراقي لكِ وقبل ما التراب يحضني، كان نفسي أفضل شامم ريحتك ما بين كفوف إيديا، كان نفسي نسهر كام ليلة سوا يعوضوكِ عن أسوأ كام ليلة هتسهريهم بعد فراقي، ما كنتش حابب أبدًا أخليكِ تشوفي اسمي محفور على قبري، لكني كنت حابب أخليكِ تشوفي اسمك محفور جوايا، كان نفسي دلوقت أكون قادر أحط إيدي في إيديكِ والتانية على وسطك وإيدك على كتفي والمسافة ما بينا أقل ما تكون، ومحاوطانا إضاءة هادية مصدرها شموع، وعزف بيانو نميل على أنغامه سوا وإنتِ في حضني..

ولكن الشمع انطفا قبل ما أقف على رجليا وكل نفس سيجارة أخدتها اتحبست جوايا، وخليت نورك يغيب يا شمس، والسما شكلها بتبكي على حالنا زي ما خليتك تبكي دلوقت..

عينيكِ خطفتني ودبت فيكِ من أول يوم عيني وقعت فيها عليكِ، سرقتِ قلبي زي الطير وعيشتِ جوايا، نفسي انقطع، واتبدل حالي بدل المرة عشرين بس أنت فضلتِ!

ولكن اللي أنا متأكد منه إن احنا أكيد هنتلاقى تاني، هيرجع قلبي ينبض من تاني، هعيش، هتنفس، وأخد نفس من السجاير، وأبص في عنيكِ وأقولك.. وحشتيني!

أنا آسف إني هسيبك وأمشي، آسف إني هكون سبب في وجعك مع إني وعدتك إني مش هكون، سامحيني..

احضنيني يا شمس.. احضنيني يمكن وجعي يداوى بيكي".

سحبني بضعف للصعود بجواره حاوطني بيديه ودفن رأسه بين كتفيّ، لم أكد أعي ذلك حتى تعالت شهقاته المكتومة داخل أحضاني وانهمرت عيناه بالدموع بلا توقف، أحسست للحظات أني أحتضن بين يدي طفلًا ذا سبع سنوات وليس سبع وعشرين، أصبح الرجل طفلًا بين يدي يسعى فقط للاطمئنان.

لم أقوَ على التحمل أيضًا لتتساقط دموعي في صمت حسرةً على حالنا.. لا أعلم كم مضى من الوقت حتى غفا من شدة إرهاقه على حالته فلم أتحرك حتى لا أقلق منامه، ظللت أُداعب خصلات شعره في هدوء وأتأمل ملامح وجهه الساكن الحزين وأحفر تفاصيله داخل عقلي حيث إنني لا أعلم متى سيكون اللقاء التالي.

همست له قبل أن يسرقني النوم:

"اهدأ يا صديقي كل شيء سينتهي قريبًا! سيتلاشى الألم كسرابٍ لم يكن له وجود من البداية".

أفاقني من غفوتي الشعور بارتعاشه بقوة بين يدي، فهمت سريعًا أنها إحدى نوباته لكني لم أشهد مثلها من قبل، يهتز جسده بالكامل مع تصلب جميع عضلات جسده، لم تمر ثوانٍ معدودة حتى

وجدت إحدى الممرضات تسحبني بعيدًا عنه، وسريعًا ما ازدحم المكان وعمت الفوضى ورأيت "علي" يقف عند باب الغرفة بيدين مرتعشتين وعيون يملؤها الخوف.

رأيتهم يحاولون جعل يوسف يتسمك بتلك الحياة البائسة، لكن باءت محاولتهم بالفشل وعم الصمت بعد أن وقع على مسامع الجميع صفارة الموت.

بدأ الازدحام يختفي وينسحب شخص وراء الآخر خارج المكان وتركوا خلفهم جسدًا خاليًا من الروح.

اقتربت منه في عدم تصديق حتى إنني لم أذرف دمعة واحدة بعد رؤيتي لخط الحياة توقف عن الحركة، أزحت الغطاء من على وجهه وبدأت في ملامسته، أنا أراه أنه أمامي، لم يذهب لأي مكان، لا يمكنني تصديق ذلك، أستطيع لمسه، أستطيع شم رائحته، أستطيع ضمه بين يدي، لكنه لم يعد هنا!

ذلك الجسد أمامي كان مجرد حافظٍ لروحه التي فارقتي للتو!

استيقظْ عزيزي من ذلك السبات لا يمكنك أن تذهب الآن! أعلم أنك تسمعني، أعلم أنك تراني، لا تتركني خلفك! لا تتركني في ذلك العالم وحدي! لن يتبقى لي أحد بعد ذهابك! استيقظ عزيزي لأعوضك عن كل ليلة لم أخبرك فيها عن حجم حبي لك، ولأريك أن كل ليلة ممطرة يلحقها صباح مشمس، استيقظ حتى أسحبك من يديك للشاطئ لنعد النجوم معًا! لا تذهب عزيزي فلم أقضِ معك وقتًا يكفيني لباقي عمري! لن أعاتبك على أخطائك المستمرة ولن أغضب عندما تخبرني أنك دخنت قليلًا، ولن أصب عليك

غضب غيرتي.. سأتماسك أكثر، وأهدأ أكثر، وأحبك أكثر، لكن أرجوك عد إليّ!

كيف لك أن تذهب دون أن نرقص رقصتنا الأخيرة؟!

♫ يا مسافر وحدك، وفايتني ♫

♫ ليه تبعد عني وتشغلني ♫

♫ مهما كان بعدك هيطول ♫

♫ دا أنا قلبي عمره ما يتحول ♫

♫ هفتكرك أكثر من الأول ♫

♫ أكثر من الأول ♫

♫ بس أنت هيهات تبقى فاكرني ♫

♫ يا مسافر وحدك وفايتني ♫

♫ ليه تبعد عني ♫

♫ ليه تبعد عني وتشغلني ♫

- يا مسافر وحدك، بصوت نجاة.

****

حسن

"بعدها حصلت حاجات لا تذكر".

"ما فهمتش! يعني كدا الحكاية خلصت؟!".

"مش بالظبط بس أيوة اعتبرها خلصت".

"ممكن توضح لي إيه علاقة الحكاية دي بيك!".

"كنت فاكرك أنبه من كدا يا دكتور وهتجمع كل حاجة لوحدك.. شمس اتجوزت محمد بعد سنتين من موت يوسف وزي ما ذكرت كان عندها مشاكل في القلب اللي أدت إن الحمل يبقى شبه مستحيل بالنسبة ليها، لكن يشاء القدر أن تحصل معجزة ويتخلق جواها جنين لكن مش من الطبيعي إن الأمور تمشي بالبساطة دي معاها، استنزف الجنين كل طاقتها لدرجة إن الدكتور طلب منها تستغنى عنه قصاد حياتها، لكنها قررت تدي فرصة للروح اللي جواها تعيش حياة أفضل من اللي هي عاشتها، قضت فترة الحمل التسع شهور بتكتب تفاصيل حياتها كاملةً لطفلها اللي عمرها ما هتقدر تحكي له التفاصيل دي بنفسها، ملت بيتها بصورها هي ومحمد ويوسف علشان لما يكبر يفضل دايمًا فاكرهم، بعد ما الطفل دخل الدنيا وشمس خرجت منها محمد دخل مصحة نفسية لعدم قدرته على استيعاب خسارة شمس والأسوأ إنهم لقوه ميت منتحر في أوضته بعدها بفترة قصيرة أظن إن دا

المريض اللي كنت بتتكلم عنه قبل كدا، وكل التفاصيل بقت مألوفة بالنسبالك دلوقت..

أنا يا دكتور الطفل اللي قررت شمس تضحي بحياتها قصاد إنه يعيش.

بس تعرف إيه المثير للسخرية فعلًا، إن معاليك كنت عارف أنا مين من أول يوم دخلت فيه المكان، وقررت لسبب لا أعلمه إنك تسيبني أحكي لك رواية أنت عارف تفاصيلها كاملة زيي بالظبط ويمكن أكتر كمان وبرضو فضلت ساكت، وحقيقي فضولي واخدني أعرف سبب سكوتك!".

"كنت عايز أتأكد إنك فعلا ابنها".

"كنت عايز تتأكد إن أنا فعلًا ابنها! ولا كنت عايز تتأكد إذا كنت أعرف كل حاجة ولا لأ؟!".

"مش فاهم أنت تقصد إيه بكل حاجة؟!".

"قبل ما أقولك أنا أقصد إيه.. مش حابب تتصل على ليلى بنتك تطمن عليها؟!"

انقلبت ملامح وجهه في لحظات من البرود المفرط للهلع واتجه سريعًا لهاتفه للاتصال بها بيده المرتعشة لكنه لم يتلقَّ منها أي رد، هجم عليَّ بغضبٍ ينبعث في أنفاسه منهالًا عليّ بلكمات متتالية صارخًا في وجهي:

"انطق هي فين! عملت فيها إيه؟!!"

رددت له لكماته لأبعده عني ويقف كلانا في إحدى زوايا المكتب التي تبعثرت نصف أغراضه ليستعيد كل منا أنفاسه المتسارعة، ابتسمت بجانبه بطريقةٍ واضحةٍ له..

"ما تقلقش هي كويسة! بس أنت مش هتشوفها تاني".

قبل أن يعيد هجومه عليّ مرةً أخرى أمسكت بإحدى المزهريات وتركتها تتهاوى على رأسه ليسقط فاقدًا للوعي في الحال، مما أعطاني ذلك قليلًا من الوقت لحمله ووضعه على أحد الكراسي وحقنه في أوردة يديه بوصفةٍ طبية التي لها تأثير سيئ للغاية على صاحبها.

وجدت نفسي في حيرة من أمري في الاختيار بين فعل ما كنت أنوي فعله فعلًا، وبين حقيقتي وعدم قدرتي على تحمل ذنب ما أنا مقبل عليه، ذلك التردد في عدم تحديد ما هو الصواب؟ وما هو الخطأ؟ هناك بعض الأشخاص يجب أن يعاقبوا ولكن لا قانون يدين أفعالهم، وهناك أشخاصٌ ظُلموا وهُدر حقهم ولا قانون ليدافع عنهم، هل يجب في تلك الحالة أن يأخذ المظلوم حقه بنفسه!

الأذية النفسية غير مرئية للعالم الخارجي لكنها موجودة، تتواجد بين الكلمات والأفعال والنظرات، لكن لا قانون يعاقب عليها ولا قانون يساعد المتضررين منها.

****

(٧)

النهاية.

شمس

الواحد والعشرون من أكتوبر

استيقظت من نومي بعد عدة محاولاتٍ من والدي في إيقاظي لأرفع هاتفي وأنظر في الساعة، إنها الثالثة بعد منتصف الليل، لم أغفُ إلا بضع ساعات لم تكفينِ فقررت أن أنام في طريق العودة..

كانت الساعة الرابعة والنصف عندما بدأنا التحرك، غلبني النعاس فورًا لكني لم أنعم بنومٍ متواصل، لم أكد أُكمل الساعة حتى شعرت بالسيارة تقف لينزل منها والدي لتعبئة البنزين ويأتي لنا ببعض المسليات، ناولني إياها ووقف بجوار السيارة ينتظر امتلاء التانك، تناولت عصير المانجو المُعلب المفضل لي، ورفعت هاتفي حتى أُخبر يوسف أنني في الطريق.. لكن لم تتح لي الفرصة قط.

تفاجأت بأحدهم يفتح الباب المجاور لي ويضع منديلًا على وجهي ويسحبني خارج السيارة، حاولت الصراخ لكن لم يخرج مني سوى صوت مكتوم، سرعان ما شعرت بثقل جفني وعدم قدرتي على الرؤية بوضوح مع صراعي المستمر لكي لا أترك نفسي لأغفو، رأيت أبي يحاول نجدة أمي من الذي يحاول تخديرها بالمثل كما فُعل معي لكني فقدت وعيي ولم أعلم ما حدث بعدها.

لم أعِ كم مر من الوقت على غفوتي حيث وجدت نفسي أفيق في مكانٍ قذرٍ ومظلمٍ لم أستطع تمييزه، حاولت التحرك من مكاني لكني وجدت نفسي مكبلةً في أحد المقاعد، سُلط عليّ ضوءٌ مفاجئٌ

جعلني غير قادرةٍ على فتح عينيّ، تقدم أحدهم في اتجاهي لم أستطع تمييز ملامحه حتى وقف أمامي مباشرةً، اهتززت تمامًا عند رؤيتي له فأنا أعرفه حق المعرفة، إنه "قصي الدين" طبيبٌ نفسيٌّ غريب الأطوار، يتتبع خطواتي قبل أن أخطوها ويراقبني كظلي، دائمًا ما يتواجد حيث أتواجد، حاول التحدث معي عدة مرات وحاول التقرب مني مرات أخرى، لم أعِ كيف لشخصٍ ذي الثلاثين عامًا أن يقوم بتلك التصرفات الخالية من العقلانية، لو كان يمتلك عقلًا كان علم أن تلك التصرفات ليس تصرفات طبيب، بل تصرفات مريض.

اقترب مني حتى إنني أستطيع شم رائحة أنفاسه المليئة بالقذارة، وأرى في عينيه ما دائمًا يخفيه من جنون..

"وحشتيني".

"فين أهلي يا قصي؟!".

"لا لا يا شمس، مش دا اللي المفروض تقوليه!".

"أهلي.. فين.. يا قصي؟!".

"ما تخافيش عليهم مني! دول هيبقوا أهلي برضو!".

"عايز إيه يا قصي! جايبني هنا ليه؟ وإيه لازمته اللي أنت بتعمله دا؟!".

"هنتقم.. جايبك هنا علشان أنتقم، انتقام صغير جدًّا علشان أقدر أهدّي النار اللي جوايا وأرجع أبصلك تاني من غير ما أحس إني عايز أأذيكِ، أظن ماينفعش أحس إني عايز أأذي الشخص اللي بحبه، مش كدا؟!

بس لما فكرت في الموضوع شوية قلت إنك أنت ما لكيش ذنب، أنا اللي حبيتك.. علشان كدا مش هننتقم منك إنتِ".

"ورحمة اللي خلقني وخلقك لو عملت في أهلي أي حاجة لأرد لك حسابك ولو بعد موتي".

"ما لك بس شادة أعصابك كدا ليه؟ ما فيش حاجة بتيجي غصب، أنا جايبك هنا علشان نتفق..

أهلك كويسين، ولو عايزة كل دا يخلص حالا قدامك اختيارين تختاري ما بينهم وكل اللي أنت عايزاه هيكون..

أول اختيار هو إني مش عايز منك أكتر من ليلة واحدة، هنقضيها سوا برضاكِ طبعا، تاني يوم هتمشي من هنا أنت وأهلك كويسين وعلى رجليكم..

الاختيار التاني بقا ودا في حالة رفضك الاختيار الأول، هنقضي الليلة دي غصب عنك بس الفرق إنك لا أنت ولا أهلك هتطلعوا من هنا فيكم الروح".

"وشرفي لأخليك تخطي على جثتي قبل ما تقرب مني بمزاجي".

صرخت في وجه بكل ما بداخلي من تقزز واحتقار من ذلك الكائن القابع الأمامي الذي يعد واحدًا من البشر، لا يجب أن يحسب واحدًا منا؛ إنه نوع لا يحوي داخله مقدار ذرة من الإنسانية، تكاد الحيوانات أن تكون أفضل منه.

تعالت ضحكاته الساخرة واقترب مني ليلامس وجهي بأصابعه المقززة، حاولت الابتعاد عنه في نفور تام من لمساته التي لا تُوحي أبدًا بخير النية.

"شمس حبيبتي، برافو عليكِ.. حقيقي خلتيني في حيرة من أمري لفترة.. كنت هعمل إيه لو كنتِ وافقتِ، بس أنا كنت عارف إنك مستحيل توافقي، علشان كدا أنا وفرت عليكِ وعلى نفسي الوقت ونفذت بالفعل جزء من الاتفاق.. الدور عليكِ".

لم يكن الوقت في صالحي لاستيعاب كلماته السابقة حتى وجدته يفك قيودي وسحبني خلفه لإحدى الغرف المجاورة حيث كنت..

تسمرت في مكاني وسرت رعشة مميتة في جسدي وانتابني الغثيان مما وقعت عليه عيناي، حيث كان يتوسط الغرفة والداي مقيدين في مقاعد برقاب منحورة حتى إنني أكاد أرى عظامهما من شدة سادية الفاعل.

تراخت قدماي لأسقط تحت أقدامهما عاجزة عن فعل أي شيء سوى التحديق في أجسادهما الباردة التي بدأ يغلب عليها لون انعدام الروح، حُفر المشهد في رأسي ولم أنسَه للحظة واحدة، تلك الدماء المنحدرة من عنقهما ليغرق ملابسهما.. على مدار أيام حياتي مهما كانت مليئة بالمساوئ كان ذلك أسوأ المشاهد التي مرت على عيني، يقع أمام بصري أغلى ما أمتلك فاقدين الروح بتلك الطريقة الخالية من الآدمية، فقدت القدرة على استيعاب بشاعة ما يقبع أمام عيني ولم أكد أفق من صدمتي حتى شعرت بيدي أبشع البشر على وجه الأرض يسحبني بقوته ليحركني من مكاني..

لم يكد يخرجني من المكان حتى تراخى جسدي أرضًا في عدم قدرة مني على صلب جسدي والشعور بقدمي، حاولت الزحف

مبتعدة عنه، لكني لم أبتعد سوى بضع خطوات حتى احتل الألم رأسي نتيجة لسحبه لي من شعري المبعثر، حاولت مقاومته وإبعاده عني فرفعت قدمي لتصيب ما بين قدميه، استجمعت هذه المرة قواي المتسربة للوقوف على قدمي والركض للبحث عن مخرج من ذلك المكان الملعون، كان الظلام يعم المكان لم أكن أرى أين أضع قدمي حتى انتهى بي المطاف لنهاية مسدودة، التفت لأجده واقفًا خلفي يحاول استجماع أنفاسه المتقطعة، اتجه ناحيتي في خطوات متسارعة ليمسكني من ملابسي ويدفعني بقوة في اتجاه الحائط لينبث بأنفاسه الغاضبة في وجهي..

"مهما خيل لعقلك إنك بتهربي مني، مجرد ما هتقفي هتلاقيني وراكِ".

بدأت تتساقط دموعي التي تحرق وجهي من شدة حرارتها لعجزي التام وفقداني للقدرة على المقاومة، فخرج من أعماقي صرخة كادت أن تمزق أحبالي الصوتية من شدة الألم التي تحمله داخلها، أسكتني بصفعة على وجهي، سقطت أرضا من شدتها وقام بتثبيت جسدي أرضا بثقل وزنه فوقي وأخرج من خلفه سكينًا مليئًا بالدماء، فهمت سريعًا أنه نفس السكين الذي افتعل به جريمته مع والديّ، رفعها عاليا على استعداد منه أن يغرز نصلها في منتصف صدري، في تلك اللحظة توقفت عن المقاومة، وثبت أنظاري داخل عينيه المليئة بالغضب وبالمقابل امتلأت عيناي بالبرود القاتم، منتظرة وبفارغ الصبر أن ينتهي كل ذلك في لحظة غضب منه ويخلص كلانا من ذلك العذاب تحت مسمى لعنة الحب، لكن

عكس ما أتمنى حدث؛ لم يفعل ذلك واكتفى بإخراج جزء من غضبه المكتوم بضربة بمقبض السكينة التي جعلتني أفقد وعيي من بعدها.

****

العجز.. في كل أوقاتي كلما شعرت بالعجز علمت من داخلي أن هناك مخرجًا، لكني لم أكن أعلم أن هناك عجزًا ليس له مخرج، العجز عن المساعدة، العجز عن طلب المساعدة، العجز عن إخراج الإنسانية من داخل أحدهم، لم ولن يكون العجز محدودًا فقط بالحركة، فلقد عجزت عن الحركة، وعجزت عن التفكير، عجزت عن الاستيعاب، عجزت عن فهم بشر أباح لهم تفكيرهم على قدرتهم بانتهاك مشاعر وأجساد آخرين تحت مسمى الحب.

أفقت من شدة الطنين الذي يحتل رأسي حيث أخذ مني القليل من الوقت لفتح عيني، سريعًا ما أدركت وميزت مكاني، المقعد الخلفي لسيارة والدي، وأجساد والديّ الراحلين في المقعدين الأماميين..

كانت الدماء تملأ جسدي والمكان من حولي، حاولت التحرك لمعرفة مكاني لكن سرعان ما احتل ألم لعين جميع أنحاء جسدي، كان مصدر الألم قدمي اليمنى مددت يدي لألتمس قدمي في محاولة لمعرفة سبب الألم الصادر منها وعدم قدرتي في تحريكها، خرجت مني صرخة متألمة في لحظة ملامسة يدي لعظام قدمي المنكسرة البارزة للخارج.

نظرت من النوافذ المجاورة لكني لم أرَ سوى صحراء ظالمة خالية من الأنوار تمامًا، التفت للنافذة التي بالخلف عندما رأيت أنوارًا مارة حيث كان يقع الطريق السريـع.

فتحت الباب المجاور لي حاولت سحب جسدي متجاهلة الألم الذي كاد أن يصيبني بشلل الحركة من شدته، لكن بمجرد فتحي للباب سمعت صوتًا كاشتعال فتيل ما، أسقطت جسدي أرضًا حتى فتك الألم به ولم أكن أمتلك حتى أحبالًا صوتية لتخرج صوتي المتألم، أسحب جسدي بيدي مبتعدة قدر الأمكان لكن لم تكد تمر لحظات معدودة حتى شعرت بجسدي يتهاوى بعيدًا عن السيارة بسبب انفجارها.

جفت دموعي، انهار جسدي، سيطر الألم على كل جزء صغير فيه، أصبحت الرؤية مشوشة وكانت محاولتي في جعل عيني مفتوحتين لأطول فترة ممكنة ما هي إلا محاولة بائسة باءت بالفشل سريعا.. أصبحت أرى صورًا متقطعة لمشاهدَ لا أعلم إذا كانت واقعًا يحدث أم أنه عقلي الباطن، أرى مشاهدَ مختلفةً من حياتي تمر أمام عيني يتواجد فيها جميع المحببين لقلبي، أستطيع أن أرى بوضوح جدي يقف أمامي بابتسامته المحببة لي يمد يديه في اتجاهي، حاولت رفع يدي للإمساك بيديه لكن بمجرد ملامستي له تلاشت ملامحه التي اعتدت عليها وتبدلت لملامح شخص مجهول بالنسبة لي.

لم أعتقد أن تكون نهايتي هنا أو الآن، كنت أضع الخطط للسنوات القادمة من عمري، لكن دائمًا ما كنت أفضل الكسل عن

البدء في تلك الأمور، كان كسلي يتمثل في بحثي عن سبب يدفعني للتوقف عن الجلوس في مكاني واتخاذ خطوة، يمكنني الندم الآن حيث إن تلك اللحظة التي أعيشها هي أكثر من مجرد سبب كافٍ لاتخاذ تلك الخطوة، أعلم الآن أنني لا أمتلك الوقت حتى للتفكير في خطوتي القادمة، وأعتقد أيضًا أن رغبتي في التواجد انتهت، مهما حدث لي الآن أريد فقط الاعتراف لنفسي أنني حاولت حتى النهاية ولا جدوى من الندم على ما فعلتِه أو ما لم تفعليه، والاعتذار لها لأنني لم أمتلك الطاقة الكافية للمحاولة أكثر.

عند روايتي للأمر تكون الأحداث في مخيلة المتلقي أقل ألما، لكن لم تكف ذكرى تلك المشاهد داخل عقلي عن نسيان كم الألم الذي جعلتني أمر به، يجعلني ذلك أفقد صوابي في بعض الأوقات، كيف لليلة واحدة بكل ما تحويه من ألم أن تحفر داخل عقلي وقلبي لما تبقى لي من عُمر!

****

أحمد

طريق العودة للمنزل هو الجزء المفضل لي دائمًا في كل رحلاتي وبالأخص إذا كان الوقت ليلًا، مع اندفاع موسيقاك الخاصة داخل أذنيك وانفصالك التام عن ضوضاء العالم والتأمل في نجوم السماء حيث تلمع دون أن تتلوث بأضواء المدينة.

منذ يوم تعييني في أحد المستشفيات انشغلت تماما عن حياتي التي اعتدت مزاولتها يوميًا، كلقاء أصدقائي والذهاب لإجازات ساحلية من وقت لآخر، لم أكن الوحيد الذي استمتع بتلك الرحلة فلست الوحيد الذي اختطفتني مشاغل الدنيا من أصدقائي، كان الجميع يتمنون إعادة تجمعنا مرة أخرى للانفصال عن ضوضاء العمل ومشاغل الحياة الروتينية المرهقة، كنت عائدًا منها وأنا أشعر بارتياح داخلي، حيث للبحر سحر خاص في جعلك تتناسى واقعك المرير.

توقفنا على أحد جوانب الطريق بعد تفاجؤ الجميع بالانفجار الحادث في منتصف الصحراء، نزلت مع أحد أصدقائي للتحقق مما حدث، حاولت الاقتراب من مكان الحريق ميزت أنها سيارة منفجرة لكني لم أستطع الوصول إليها بسبب ألسنة النيران المرتفعة، اتجهت سريعا في اتجاه صديقي بعد سماعه يصيح باسمي، رأيته يقف أمام فتاة تملأها الدماء ويكاد يكون جسدها خاليًا من الروح، اقتربت منها ومددت يدي في اتجاهها للتأكد من نبضها، سرت

الرعشة في جسدي عندما رفعت يدها في المقابل لتتلامس مع خاصتي، تراخت أعصابها بعدها وللحظة أحسست أنني أفقدها، فحصت جسدها سريعا لأستوعب حالتها نبضها الضعيف وقدمها المكسورة ورأسها المجروح، رفعتها بحرص بين يدي وأسرعت بها للسيارة ليضاعف صديقي سرعته في القيادة للوصول لأقرب مستشفى لنجدة تلك الفتاة المسكينة، حاولت تدفئة جسدها الذي يشبه قطعة الجليد بالجاكت الخاص بي، حيث كانت ترتدي ثيابًا خفيفة للغاية وبالكاد تغطيها، كانت أول توقعاتي أنني لن أكون قادرًا على إنقاذ حياتها، وأنها ستفقد روحها بين يدي.

****

بعد عمل لها الإسعافات اللازمة وقضيت معها ليلتها الأولى في المشفى، طلبت نقلها للمستشفى التي أعمل بها لشعوري بعدم الرغبة في تركها وحدها هنا قبل معرفة من هي أو التواصل مع أحد أقاربها ولتكون أيضًا تحت إشرافي هناك.

مر على سباتها في نوم عميق عدة أيام، تم تحديد هويتها سريعا وتم التواصل مع أهل والديها حيث إنها فقدتهما في ذلك الانفجار، مهما كثر زوارها ومهما حاول العديد التحدث معها وآخرون حاولوا التمسك بيدها وترجيها لفتح عينيها لا يعود ذلك بأي نتيجة، وفي بعض الأوقات يمتلئ المكان ببكاء وصيحات حزن على ما حدث لها، وفي أوقات أخرى يعم الصمت فيما بينهم.

كنت أتعمد أخذ النوبات الليلية للتسلل لغرفتها دون ملاحظة أحد للجلوس في زاوية الغرفة وتأملها لقليل من الوقت، لا أعلم سبب ذلك الإحساس الذي احتلني منذ لحظة تلامس يدينا، وعندما كانت نائمة بين يدي وأنا أحاول تدفئتها، وحتى الآن.. أشعر أنها طفلة في الخامسة من عمرها تتألم بين يدي والدها، واحتل الخوف قلبي لفكرة فقدانها.

بعد محادثة دارت بيني وبين المحقق المسؤول عن قضيتها علمت عنها القليل من المعلومات وعلمت أيضًا أنهم لم يستطيعوا العثور على جثمان والديها كاملين بل مجرد قطع من أجسادهما متناثرة في الأرجاء!!

انشغل بالي بالكثير من الأسئلة في كل دقيقة كانت تمر بينما أنظر إليها منتظرًا استيقاظها لعلها تجيبني على أي منها، ماذا حل بكِ؟ من معدوم القلب المتسبب في تلك الحادثة؟ كيف نجوتِ؟ كيف ستكملين؟

لم أشعر بالحزن من قبل كما شعرت تجاهها، وما زاد الأمر سوءًا إحساسي بالذنب لعدم قدرتي على مساعدتها في تلك الحالة وليس بيدي حيلة سوى الانتظار.

****

أيقظني من نومي رنين هاتفي بمكاملة صادرة من المشفى تخبرني أنها أخيرًا أفاقت! سابقت الوقت للوصول هناك في أسرع وقت ممكن، وعند وصولي استقبلتني الممرضة لتخبرني أنها لم تقم بأي حركة ولم تتكلم حتى مع أحدهم.

وقفت أمام الباب لجمع شتات نفسي ورسمت على وجهي ابتسامة مزيفة لا تعكس ما بداخلي..

"حمدًا لله على سلامتك يا شمس، أخبارك إيه؟ أنا الدكتور أحمد المسؤول عن حالتك".

نظرت إليّ كأنها تنظر للفراغ بتعابير خالية، وبدأت تتساقط منها الدموع في لحظة استيعابها أن ما حدث ليس بكابوس، بل أمر واقع تعيشه بكل مساوئه.

"أنا ممكن أمشي من هنا؟!".

كان ذلك أول ما أردفت به قبل أن تزيل إبر المحاليل من يديها بقوة نتج عنها تسلل الدماء خارج جسدها، تحركتُ سريعا لتثبيتها في مكانها ومنعها من الحراك حتى لا تزداد في إيذاء نفسها..

"ما ينفعش تمشي من هنا وأنتِ في حالتك دي، وبعد اللي حصل لك..."

"أنت ما تعرفش حاجة عن اللي حصل لي، وحتى لو عرفت عمرك ما هتحس ببشاعته.. مشيني من هنا".

اندفعت في وجهي بثبات عينيها داخل عيني، وكلمات مشحونة بغضب مكتوم وتشنج جسدها وبروز عروقها..

" هعمل لك كل اللي أنت عايزاه، وهجيب لك أي حد تحتاجيه، بس اسمعيني! أنت فعلا ما ينفعش تمشي دلوقت!".

" مش عايزة أفضل هنا.. مش عايزة حد، كفاية!! اللي أنا محتاجاهم فعلا ما عدوش موجودين، لو كنت سبتني هناك كان زماني دلوقت معاهم، مرتاحة.

دلوقت أنا مضطرة أعيش حياتي بوجع محفور جوايا ومهما حاولت عمري.. عمري ما هرتاح!".

صرخت بصوت ممزوج ببكاء بنبرة ألم واضحة، لحقه صرخات تحاول كتمها في وسادتها، انكمشت على نفسها بعد حقنها بالمهدئ لتهدئة أنفاسها المتسارعة وتراخي عضلات جسدها المشدودة لكن لم تتوقف عيناها عن ذرف الدموع..

"كنت سبتني.. كنت هرتاح".

أشعر بقلبي يتمزق الآن إثر عجزي عن مواساة تلك الطفلة البالغة بسبب جهلي التام بما مرت به قبل تواجدها هنا، جلست بجوارها بينما أشعر بها تغط في النوم، رفعت يدي لأمسح على شعرات رأسها وأهمس لعلها تسمعني..

"اهدئي يا صغيرة، كل شيء سيكون على ما يرام".

****

الحادي عشر من نوفمبر

كانت على حق! لن أشعر أبدًا ببشاعة ما حدث لها.. كانت تتعافى سريعًا فلم تكمل هنا عدة أسابيع، كنت دائمًا متواجدًا من أجلها، كانت تقف أمام النافذة تتابع اختفاء الشمس وتبدأ في رواية بعضًا من أحداث حياتها، في بعض الأوقات تكون مترابطة وفي بعض الآخر لا تكون، وعندما قررت التحدث عن يوم الحادث اتخذت من المقعد المقابل لي مكانًا لها، وبدأت برواية كل شيء دفعة واحدة بشرحٍ مفصل دون أن يسقط منها دمعة واحدة.

أنا مجرد شخص متلقٍ يستمع وشعرت بألم لا يطاق في منتصف صدري وكدت أختنق من شدته، لكن ماذا عنها؟! كيف لها أن تتحمل ذلك الكم الهائل من الألم داخلها ولم ترتجف حتى نبرة صوتها؟!

حاولت إقناعها على رؤية طبيب نفسي لكنها رفضت الفكرة دون حتى التفكير فيها، لا أستطيع أن ألومها على ذلك؛ تمتلك سببًا كافيًا لتكره الرجال جميعًا وليس الأطباء النفسيين فقط، لذلك اتفقت معها على أن نتلاقى ساعتين مخصصين لها أسبوعيًّا ويجب أن يلتزم كلانا بذلك مهما كانت الظروف المحيطة بنا، تقبلت الفكرة ولم تستنفد طاقتي في إقناعها بذلك.

في الصباح اتجهت إليها كعادتي لأطمئن على إخبارها لكني تناسيت تمامًا أنه يوم مغادرتها، بالرغم من طلبي لها للبقاء فترة أطول حتى تتعافى بالكامل لكنها قررت الذهاب بمجرد فك جبيرة كسر قدمها..

" متأكدة مش عايزاني أوصلك للمكان اللي أنت رايحاه!"

"متشكره جدًّا ليك يا دكتور وعلى تعبك معايا الفترة اللي فاتت، لكني محتاجة أتمشى لوحدي شوية".

"ما تتعبيش نفسك أنت لسَّا محتاجة شوية وقت علشان ترجعي لحياتك الطبيعية، دا غير إنك وعداني إني أسيبك بشرط إنك تخلي بالك من نفسك!".

"ما تقلقش عليا يا دكتور، وبعدين رقمك معايا لو احتجت أي حاجة مش هتردد إني أكلمك".

ودعتها كأب يودع ابنته الوحيدة المحببة إلى قلبه، مع علمي أنني سأراها مرة أخرى وباستمرار، إلا أن تركها لتواجه ذلك العالم وحدها كان أكثر ما يثير قلقي، لو كنت أمتلك فتاة من صلبي لتمنيت أن تشبهها في كل شيء، مهما كان ما يدور داخلها فهي قادرة على التحكم به وعدم إظهاره للآخرين، ولم تفقد السيطرة يوما إلا إذا فاض بها الأمر، لم تكن تهزم إلا إذا استنفدت آخر ذرات القوة داخلها.

أصبح الألم رفيقًا لها منذ أن بدأ الموت يتسلل عالمها، وبدأ في سرقة شخص بعد الآخر حتى سيأتي اليوم الذي لن يتبقى أحد لسرقته سواها.

قررت منذ لحظة وقوع عيني عليها أنه مهما كانت، ومهما ستكون سأتواجد دائمًا هنا من أجلها.

****

سرق مني الوقت سريعًا ولم يتخلف أحدنا على معادنا الثابت مهما اختلف المكان أو الوقت، لم يمر علينا أسبوع دون أن نلتقي، رأيتها في جميع حالاتها السعيدة، الحزينة، الهستيرية، الجنونية، العميقة، التافهة، والحمقاء، رأيتها تنضج أمام عيني يومًا بعد الآخر وتتحول من تلك الفتاة الصغيرة المراهقة لامرأة واعية، كنت أستمتع بمرافقتها لأي مكان تحب الذهاب إليه، وكنت أُلبي لها أمنياتها التي كانت في الأغلب تتناسى أنها تمنتها يومًا.

من شدة تعلقي بها وانتظاري لمعاد لقائنا من أسبوع لآخر أعتقد الجميع أنني وقعت في غرامها، لقد وقعت بالفعل في غرامها لكن ليس بالطريقة التي يتخيلها الجميع، كان نوعًا مختلفًا من الحب المتعارف عليه، لا تربطني بها أي علاقة لكن هناك رابطة خفية متصلة بيننا لا يراها أحد غيرنا، مهما بلغ عمرها كانت تظل فتاتي الصغيرة التي لم أمتلك غيرها، كان الأمر أمثل بأنها كانت ابنتي فعلًا وضاعت مني في صغرها ودون مقدمات ظهرت أمامي مرة أخرى، كانت مختلفة، جميلة، ناعمة، صاخبة، هادئة، مريحة، قريبة للقلب تتخذ مكانة خاصة داخله لا يستطيع أحد تخطيها، مثلت شمس لي الابنة التي عوضتني عن عدم قدرتي على الإنجاب.

لم أرَ جمالًا مثل جمالها في يوم زواجها، كان ذلك بعد اتمامها لعامها الخامس والعشرين، صغيرتي شمس أصبحت زوجة أحدهم الآن.. لم أكد ألحظ الوقت حتى أجد منها زيارة غير متوقعة منها في وقت عملي لتخبرني بخبر جعلني عاجزًا عن تحديد ماهية المشاعر التي من المفترض أن أشعر بها بعد سماعه.

"اقعدي يا شمس عايز أتكلم معاكِ في حاجة.. المرة دي أنا هعاملك على إنك كبيرة كفاية وبتفكري في القرار مرة واتنين وتلاته قبل ما تاخديه".

"أنا مش متعودة على النبرة الجدية دي منك! حصل إيه؟"

"أنت ليه رجعتِ لمحمد يا شمس، مع إنك عارفة إن اللي بيسيب مرة بيسيب كل مرة!".

"ليه دلوقت؟ يعني ليه ما سألتنيش السؤال دا قبل الجواز! بل التزمت بالصمت وخلتني أحتار فترة طويلة بسبب سكوتك مع إنك أنت برضو عارف إني فعلًا كنت محتاجة رأيك في الموضوع دا".

"كنت عايزك تاخدي قرارك بنفسك، وفي نفس الوقت كنت مستنيكِ تيجي تقولي لي أنا هعمل كدا علشان واحد اتنين تلاته، لكنك أنتِ كمان التزمتِ بالصمت واحتفظتِ بأسبابك لنفسك، لكن دلوقت أنا فعلا محتاج أعرف الإجابة".

" الحب القديم ما بيتنساش، مهما هيئ ليك إنه اختفى فهو مجرد مدفون جواك.. رجعت لإني كنت عارفة إن مهما طال رفضي ففي النهاية هيبقى قبول"

"أنا كنت هبقى سعيد جدًّا بخبر الجنين لو كنا في ظروف مختلفة، لكن للأسف أنت مضطرة تجهضيه".

"دا بسبب ضعف القلب، مش كدا؟!".

"للأسف".

"أكيد في حل تاني غير الإجهاض يعني ممكن أخلي الولادة قيصري، دا أكيد مش هيكون متعب ليا!".

"ما تعانديش يا شمس، الحاجة الوحيدة اللي ممكن تطلع الطفل دا للدنيا هو إنك تضحي بحياتك قصاد حياته، ودا انتحار! وخارج مجال النقاش".

"أنا موافقة!".

"موافقة على إيه! أنتِ مستوعبة أنتِ بتقولي إيه؟".

"أنت لسَّا قايل لي إنك هتتعامل معايا على إني كبيرة كفاية إني أعرف آخد قراراتي بشكل كويس!".

"بعد تفكير يا شمس! قُلت تاخدي قراراتك بعد تفكير مش بالسرعة دي ولا وانتِ في الحالة دي!، أنا مش موافق ولازم تحطي رأيي في الاعتبار، ولازم محمد كمان يبقا في الصورة!".

"لأ! مش عايزة محمد يعرف أي حاجة!".

"من حقه عليكِ وعلى الجنين إنه يعرف! وعلشان يبقى موجود ويسندك مهما كان قرارك، أمال أنت متجوزاه ليه؟ لمجرد إنك بتحبيه؟".

"أيوة متجوزاه لمجرد إني بحبه! لأني بحتاجه دايمًا جنبي حتى لو ما فيش حاجة تستدعي دا! وحبي ليه هو السبب اللي هيمنعني أخليه في الصورة".

"لو معرفتهوش هعرفه أنا، لأني مش هسيبك تعملي اللي في دماغك دا، مستحيل".

"أنت وأنا عارفين إني مجرد ما باخد قرار ومهما حاولت تستنفذ طاقتك في إقناعي، مش هتوصل للنتيجة اللي أنت عايزها في النهاية!".

"على الأقل عرفي محمد، يمكن هو يقدر يقنعك".

" مش هيقدر، وبمجرد ما هيعرف هتتخلق في عنيه نظرة انتظار اليوم اللي هختفي فيه! مش هقدر أعمل فيه كدا! أنا محتاجة دعمه وطاقته الإيجابية علشان أقدر أكمل للآخر".

"فكري تاني يا شمس! مش عايزك تمشي!".

"مش شايف إن كفاية الموت ياخد مني حد تاني! جه الوقت اللي أبطل أعافر فيه وأمسك في الدنيا وأدي لحد تاني حياة لعنتي مش موجودة فيها، مش هسيب الموت يغلبني تاني، جه عليا الدور إني أروح له أنا".

****

الأول من يوليو

ابتسمت بإرهاق عند دخولي عليها إحدى غرف المستشفى منتظرة اصطحابها لغرفة العمليات..

"لازم أعرفك شوية حاجات في حالة عدم حدوث معجزة تخرجني من جوا فيا الروح..

من يوم ما قابلتك وأنت الجزء الوحيد اللي في حياتي اللي ما حصلش فيه أي تشوهات، كنت **الملاذ** اللي بلجأ له من بشاعة العالم، كان وجودك من أكتر الحاجات اللي بتمنى دوامها، بفضلك فضلت دايمًا واقفة على رجلي مهما حصل لي، أنت السبب الرئيسي في كل نجاحاتي وفي استمراري الدائم، مش ناسية أي حاجة أنت عملتها علشاني بسبب أو من غير، مش ناسية نظرة الحب اللي في

عينيك اللي عوضتني عن خسارة أهلي، مش ناسية أي حاجة تخصك وعمري ما هنساها، أنت ملاذي اللي فضلت طول عمري بدور عليه ولقيته.

هطلب منك طلب وغالبًا هيكون الأخير، اتفقت أنا ومحمد إننا هنسمي الطفل "حسن"، عايزاك تكون له زي ما كنت معايا، تفضل دايمًا بتدعمه ومعاه وبتساعده، وإوعي في يوم تسيبه لوحده!

ولما يكبر ويتم في العمر اللي تميته من عمري، أديله الأجندة دي ووصيه إنه ماينسانيش!".

ناولتني الأجندة التي امتلأت بآلاف الكلمات تحمل في طياتها مشاعرها.

بدأت تشعر بتقلصات مؤلمة أعتقد أنه حان الوقت، ناديت على الممرضة لأخذها لغرفة العمليات، ووقف كلانا -أنا ومحمد زوجها- في الخارج نستمع لصرخاتها المتتالية التي يملؤها الألم، انتفض الجميع إثر صرخة عالية لم تفرغ فقط الألم فيها.. بل أخرجت روحها معها أيضًا، عم الصمت بعدها للحظات طويلة لترتسم ابتسامة واسعة على وجه محمد بعد سماعه لبكاء طفله الضيف الجديد لهذا العالم.

خرج الطبيب بعد عدة دقائق ليطمئن قلب محمد أن الطفل في صحة جيدة، لكنه لم يتلقَّ سوى اعتذار صغير عندما أردف بسؤاله عن شمس.. تركه الطبيب وغادر مبتعدًا عندما بدأ محمد في الصياح بكلمات مبعثرة لرفضه لتصديق تلك الفكرة التي زرعت

للتو داخل عقله، سحبته لغرفتي حتى لا يتسبب في مشاكل هو في غنى عنها الآن، وأخبرته ما لم تستطع شمس إخباره له قبل ذهابها.

****

ليلة الفراق.. الأسوأ على الطلاق، تتفاوت أمام عينيك ذكريات لأوقات لن تكرر، اللقاء الأول، الكلمات الأولى، ملامح ضاحكة، غاضبة، مبتهجة، حزينة، أماكن اختفت ألوانها مع اختفاء رفيقك فيها، تصاب بالاكتئاب يصحبه الأرق، فقدان الرغبة في فعل أي شيء وكل شيء، الانعزال، البكاء، التحديق، الإفراط في النوم، يصبح الصمت رفيقك الأول، والفراغ كل ما تملك، تنعدم الرغبة في الحياة وتبدأ في التساؤل عن سبب تواجدك! لمَ تلاقت الطرق إذا كان الفراق محتومًا؟!

يسيطر على عقلك كمٌّ هائلٌ من الأسئلة ويترأسها: لماذا؟

ولا تكمل الليلة إلا بحضور شعور الندم على عدم التعبير بشكل كافٍ عن حبك للشخص الراحل، وعن كم الأفعال التي لم تمتلك الوقت الكافي لفعلها، تتساقط قواك أرضًا وينكشف ضعفك للعالم فلقد غادر أحد أعزاء قلبك، لينتهي بك المطاف لتغط في نومٍ دون الوعي بكيف أو متى.

****

لم يكد يمر على رحيل شمس عدة أيام حتى وصلني اتصال من المستشفى أنّ محمدًا ترك الطفل في المستشفى ومعه ظرف مغلق وأبلغهم أن يسلموه لي، ارتكزت مكاني للحظات غير مدرك عن سبب فعله لذلك لكني لم آخذ الكثير من الوقت في الخروج لأخذ الطفل وتسليمه لأهل شمس، فتحت الظرف عند وصولي لأجده يحتوي على وصية محمد تنص على أنه في حالة وفاته أن تسلم وصية الطفل لي! كيف له أن يتخلى عن ابنه بتلك السهولة، وماذا يدور داخل ذلك العقل حتى يترك ابنه هنا ويغادر بتلك البساطة! سقطت من الظرف ورقة صغيرة أخرى لم تكن تحتوي سوى على جملة واحدة:

"لا تُسئ فهمي، لم أكن أريد قطعة منها، كنت أريدها هي".

علمت الآن أنه قام بالتخلي عن ذلك الطفل للأبد، ذهبت والدتك من ذلك العالم في لحظة حضورك له، تخلى عنك والدك لاعتقاده أنك سبب رحيلها، أهدت شمس روحها لك لتعيش حياة خالية من لعنتها، لكن منذ لحظتك الأولى وبدأ بالفعل الجميع بالمغادرة.

اتخذت عهدًا على نفسي أنه مهما كان ما سأمر به لن أجعلك تتألم كما حدث لشمس، سأكون دائمًا حاضرًا من أجلك، سأكون والدك الذي تخلى عنك، وستكون لي هدية تحوى قطعة من روح شمس بداخلك، حرمت من نعمة الإنجاب لكني رزقت بشمس من قبلك ومن ثم بك.

أتم حسن شهرين فقط من عمره حين وصلني خبر انتحار محمد في إحدى المصحات النفسية، سريعا ما تواصل معي المحامي الخاص به ليخبرني أنه ترك وصية يتم نقل فيها حضانة الطفل لي، رفضت تنفيذها وطلبت منه أن يبقى الحال كما هو عليه حتى لا أتسبب في مشاكل مع عائلتيّ شمس ومحمد، حيث أول ما قد يخطر في بالهم أنني أسرق ذلك الطفل المسكين من بينهم.

في أحد الأيام ذهبت لمقابلة خالة شمس التي تعتني بحسن وأفهمتها علاقتي بشمس ومحمد، كانت متفهمة للأمر تمامًا وطلبت منها خدمة صغيرة، أن تسمح لي بالتواجد بجوار حسن ورؤيته المستمرة حتى لا يشعر بالنقص وحتى أنفذ عهدي وطلب شمس الأخير.

كان الوضع مختلفًا هذه المرة مع حسن حيث إنني شهدت مراحل تطور عمره كاملة، وكلما زاد في العمر زاد تعلقه بي وكان ذلك يزيدني سعادة فوق سعادتي بتواجدي بجواره، جعلته يعتاد من صغره على مناداتي باسمي حتى لا يشعر بعدم الراحة إذا اضطر أن يناديني بغير ذلك كما اعتدت على فعل ذلك مع شمس أيضًا، كان مرحًا، ذكيًّا، سريع البديهة، سابقًا لسنه..

وعندما أتم عامه الثامن عشر، تسللت خالته الراعية له ليلًا من هذا العالم، لتتركه وحيدًا حزينًا في صباح اليوم التالي، في ذلك الوقت طلبت منه أن ننتقل للعيش معًا حيث تجوز والديه وأكون راعيًا له، فأنا كما يعلم أعيش وحيدًا لا أمتلك زوجة ولا أطفالًا، لا أمتلك سواه، كان صعب الإقناع كوالدته لكنه وافق في النهاية حيث إنه ليس في السن المناسب لتحمل مسؤولية نفسه وحده.

بعد مرور ٢٦ عامًا..
الأول من يوليو

أتم اليوم عزيز قلبي بعد شمس عامه السادس والعشرين، اليوم الذي كنت أخشاه طيلة عمري، حيث إنه حان الوقت لأهدي له هدية والدته الأولى والوحيدة التي تركتها له يوم ولادته.

تسللت أمراض مختلفة لجسدي حاولت الدفاع عن نفسي منها عدة سنوات لكن الفترة الأخيرة لم تكن الأدوية تجدي نفعًا كالمعتاد، علمت أن النهاية تقترب وتمنيت أن لا تحين إلا بعد ذلك اليوم، فتحت عيني في الصباح لأجد "حسن" الذي سقط في النوم على الكرسي المجاور لي، ناديت عليه بخفوت ليذهب للنوم في غرفته عوضا عن تلك الوضعية غير المريحة..

"لا لا أنا خلاص صحيت، قل لي أنت بس حاسس بإيه النهاردة! أحسن؟!".

تجاهلت سؤاله وطلبت منه الوصول لأحد الصناديق المقفلة فوق دولاب غرفتي لعدم قدرتي على القيام بذلك بنفسي، أحضرها ووضعها بجواري وسألني عن سبب طلبي لذلك الصندوق الآن..

"دايما كنت بتهرب منك لما تسألني عن شمس ومحمد ويوسف، وقلت لك تستني لحد ما تتم سن وفاة شمس.. جه الوقت اللي تعرف فيه كل حاجة".

مددت يدي للصندوق وأخرجت منه الأجندة التي ظلت في مكانها كل تلك السنوات الماضية تنتظر لإفراغ ما بداخلها لمتلقيها.

"مجرد ما هتقرأ الكلام اللي مكتوب هنا هتعرف كل حاجة.. بس أهم حاجة، اوعدني يا حسن.. اوعدني إنك مش هتنساها".

ذهبت الروح لخالقها لعلها تلتقي بمن اشتاقت.

حسن

عدي الجمايل يا حبيبتي
واذكريني حينما
تضرب عنيكِ في السما
وتحسي بالوحدة
بتطيري العصافير
وتطيري وياهم
وتدمعي في حزنهم
وتغني في غناهم
يصبح لقاكِ مصير
للي بيهواهم
واللي بيهوى الهرب
يا طيبة يا زينب.

- زينب، أحمد الطحان.

لم أرِكِ من قبل يا أمي لكنني لم أنسَكِ! كيف أنساكِ وأنتِ دائمًا داخلي!

"أظن أنت دلوقت استوعبت كل حاجة، وعرفت كمان سبب وجودي هنا!".

"اعمل فيا اللي أنت عايزه بس ابعد عن ليلى!"

"موقفك لا يسمح لك إنك تطلب مني حاجة زي دي.. قل لي صحيح، المشهد دا مش بيفكرك بحاجة! أظنك حضرت ما يشابهه من أكتر من ٣٤ سنة، مع اختلاف الأدوار طبعا، وأنا طبعا مقدرش أغير حاجة في تفاصيل المشهد، فخليني أقول لك هنعمل إيه..

أنا بالفعل حددت نهاية المشهد، بس هديك حرية الاختيار زي بالظبط ما عملت مع شمس، فأعتقد إنك بالفعل توقعت النهاية".

"لا لا مستحيل تكون نفس النهاية، أنا اتغيرت!! صدقني!! واللي حصل بقى ماضي ما حدش يقدر يغيره، وأكيد شمس لو كانت لسَّا عايشه ما كانتش هتقبل أبدًا إنك تعمل اللي بتفكر فيه، وبعدين أنا ندمت، ندمت على كل اللي عملته.."

"الندم مش هيفدني بحاجة! الندم مش هيصلح اللي اتكسر! ندمك مش هيرد الروح لأجسامهم المدفونة في القبور.. أنا اتحرمت من ناس وجودهم كان أهم حاجة في حياتي! الندم عمره ما هيديني الفرصة إني أشوفها، أعيش معاها، أحضنها! الندم عمره ما هيخليها هنا!

ازاي عقلك هيأ لك إنك حبيتها! عشت طول عمرك ك دكتور بيعالج الناس من أمراضهم غير المفهومة للعالم التقليدي، لكنك تغاضيت عن المرض اللي ساكن جواك ووضعته تحت مسمى الحب حتى تبرر لنفسك إنك مش محتاج علاج! أنت أكتر مريض محتاج يتعالج يا دكتور.

اختفاء شمس بسبب اللي أنت عملته فيها، أدى إلى رجوع يوسف للتدخين من جديد اللي نتج عنه سرطان الرئة وانتهى بيه الأمر مدفون..

بشاعة اللي خليت بنت في الـ ١٨ من عمرها تمر بيه كان أسوأ من إنها تتحمله من غير أعراض جانبية اللي منها ضعف القلب وعدم قدرتها على استهلاك طاقتها بشكل طبيعي، علشان كدا مستحملتش الولادة! وانتهى بها الأمر مدفونة..

موت شمس في وقت كان متوقع فيه الفرح وليس التعاسة كانت صدمة كبيرة على محمد سهلت سيطرة الضعف عليه وانتهى بيه الأمر مدفون، ولن أتغاضى عن أهل شمس اللي دفنوا قبورهم فاضية!

بسبب هوسك ومرضك دمرت أكتر من مجرد شخص واحد!

بسببك أنا دلوقت وحيد.. كانت كل طلباتك ليلة واحدة، مش كدا؟ علشان كدا أنا هنا علشان آخد منك ليلى اللي أكيد اسمها دليل على الليلة البشعة اللي اتمنتها ونولتها، وبما إنها الشخص الوحيد اللي لسّا فاكرك، فأنت هتتنسي مجرد ما ليلى تموت.

خلال ساعات هتصاب بشلل كلي بسبب حقنة محلولها داخل جسمك حاليا، أنا للأسف مش هكون موجود قدامك أحضر اللحظة التاريخية دي ولكن بمجرد ما أتأكد إن دا حصل لك هتلاقي عربية إسعاف عندك لكنهم هيفشلوا في مساعدتك لسوء حظك، وهيتم تسجيل حالتك كميؤوس منها، ولو ما لقوش ليك أي حد

قريب ممكن يعتني بيك هيحجزوك في دار رعاية لحد زي ما بيقولوا يبان لك صاحب..

وفي خلال الوقت دا ليك حرية الاختيار.. هل تحب أسيب ليلى من غير أذية في مقابل إني هزوّر وفاتك وهتختفي وتبقي ميت بالنسبة ليها وللعالم.. ولا تحب يبقى الحال كما هو عليه بالنسبالك ولكن بالنسبة لـ ليلى فأنا بالفعل بدأت أفكر بالطريقة اللي هتم بيها الأمر، وطبعا في المرتبة الأولى تحتل فكرة نحر الرقبة بعد طبعا قضاء ليلة لذيذة معاها وهتبقى في منتهى الجمال بالنسبالي لو تميت كل دا قدام عنيك.. في الحالتين هتتأذي وهتتنسي، في الحالتين مش هتشوف ليلى تاني، ليك حرية الاختيار يا دكتور، اتفضل"

"اقتلني أنا وسبها تعيش، أنا موافق على أي حاجة تعملها فيا بعيدًا عنها!"

"الموت رحمة، وأنت ما تستحقهاش".

"بس ليلى ما لهاش ذنب!"

"وأنا ما كنش ليا ذنب، بس على العموم إن زي ما قُلت لك إني بالفعل حددت نهاية المشهد مهما كان قرارك.. ولاختصار كلام كتير لأن تواجدك معايا في نفس المكان بقى شيء لا يطاق، فـ هبغلك بكيفية سير الأمور وهمشي..

بعلمك ليلى كانت مسافرة دهب تقضي كام يوم هناك مع أصحابها واتحركت من البيت في بداية الليل اليوم اللي فات، لكن اللي حصل بغير علمك إن ليلى كانت مسافرة معايا، أنا وهي وبس..

أنا مش زيك يا دكتور ولم أتغاضَ عن المرض اللي جوايا وقُلت لأني بحبها مش هقتلها بطريقة بشعة، أنا اعترفت لنفسي إني إنسان مريض وعدم قدرتي على قتلها بطريقة أسوأ من اللي حصلت هو بسبب إني أجبن من إني أعملها.. كل اللي عملته إني خدرتها وحطيتها في تابوت معمول خصيصا علشانها، وأخدت التابوت وبكل بساطة رميته في البحر، وصدقني لو قُلت لك إني حتى لو حاولت أوصل له تاني مش هفتكر مكانه.

أنا صحيح حزين على فراقها، لكني سعيد جدًّا إنك هتقضي اللي باقي من عمرك عاجز، وحيد، منسي..

قبل ما أمشي هختم كلامي بالسبب اللي استدعى شمس إنها تسكت طول السنين اللي فاتت، ودا لأن في آخر كلماتها ليا وصيتها الأولى والأخيرة: "اجعله منسي، ولا تنساني".

****

تركته بعد تأكدي من شلله الكامل، وغادرت المكان ليس فقط مكتبه بل المدينة بأكملها فلم يعد لي مكان هنا، يمتلئ المكان هنا بذكريات كلما مررت بأحد الأماكن لا أتوقف عن تذكر أصحابها، في بعض الأوقات كدت أعتقد أنني بطل تلك المشاهد لكني في الوقع مجرد مشاهد، مهما كان الألم الذي مر به أصحاب تلك المشاهد فلقد انتهى الآن، يمكنني الذهاب لقبورهم الآن وإخبارهم أن سبب معاناتهم في الدنيا مُحي أثره من عليها، ارتاحي في سباتك يا أمي.. ستظهر كلماتك للعالم قريبًا وسيتذكرك الجميع كما أفعل دائمًا.

لم أعتقد يومًا أنني سأمتلك هذا الكم من الكراهية لأحدهم، بل وأتمنى له أشد الإيذاء الممكن، لكني في المقابل لم أتوقع أن يخفي القدر ما نحن غير قادرين على توقعه!

منذ صغري ولم تكن أمنيتي سوى قضاء ليلة واحدة مع هؤلاء الأشخاص التي يمتلئ المنزل بصورهم، ليلة واحدة فقط لأخبرهم أنه حتى في غيابهم مكانتهم داخلي محفوظة لهم لا يستطيع أحد المساس بها.

****

عزيزي القارئ، أعلم أن الأمور معقدة داخل عقلك، وأعلم أن قراءتك لبعض من كلمات الروايات يمكنها تهدئة القليل من تلك الفوضى القابعة داخلك، أعلم بمقدار الألم داخلك، أعلم بوحدتك في نهاية الليل، أعلم بتلك الأوقات التي تعجز فيها عن إيجاد شخص يستطيع فهم تلك الفوضى التي تحتل منتصف صدرك، أعلم بشعور الخذلان، الغضب، الكتمان، الاختناق، الوحدة، الفراغ، أعلم بكل المشاعر السلبية التي تراودك من وقتٍ لآخر وربما دائما، أريد فقط إخبارك أنك لست مطالبًا أن تكون دائمًا الطرف اللطيف كثير التنازل والملتزم بالصمت، في بعض الأحيان يجب أن تظهر ذلك الجزء المظلم داخلك وجعلهم يدفعون ثمن إيذائهم لك بـ تشوهاتهم النفسية.

♫ قوم نحرف ها المدينة ونعمر واحدة أشرف ♫

♫ قوم ننسى ها الزمان ونحلم بزمن ألطف ♫

♫ ما زالك بلا شيء ما فيك تخسر شيء ♫

♫ وأنا مليت من عشرة نفسي ♫

♫ كان بدي غير العالم، مش عارف كيف العالم غيرني ♫

♫ كان بدي أحمل السما وهلا أنجق حامل نفسي ♫

♫ قولي إني منيح ♫

♫ قول، قول إني منيح ♫

- إنني منيح، مشروع ليلى.

****

الخامس والعشرون من مايو

بعد مرور ما يزيد عن العام منذ الأحداث الأخيرة أفق من نومي بسبب نور الشمس المتسلل لغرفتي المطلة على أحد شواطئ مدينة "ذهب" المكان الذي تمنت شمس دائمًا زيارته.

أخذت عيناي القليل من الوقت للاعتياد على الضوء حتى ميزت وقوف تلك الفتاة صاحبة الشعر القصير في الشرفة مرتدية أحد قمصاني، تتأمل في ثباتٍ جمال المكان المحاوط لها وتستمتع بنقاء الأصوات.

تحركت بهدوء حتى لا تلاحظني لأفاجئها بذراعي تلتف حول خصرها الرفيع وأسحبها من الخلف لداخل صدري لأستنشق عبيق شعرها كأنه مخدر طبيعي لحواسي:

"قمتِ من جنبي بدري كدا ليه؟".

"بالي مشغول".

"وإيه اللي شاغل بالك؟".

"ما فيش حاجة بتشغل بالي غيرك.

من يوم وفاة بابا السنة اللي فاتت وأنا ما ليش حد غيرك، فبالي مشغول بإيه اللي ممكن يحصل لو مشيت!".

"بس أنا مش همشي!".

"هتفضل موجود، إلى ما لانهاية يا حسن!".

"وما بعدها يا ليلى".

في النهاية أعتقد أن الحب ملاذٌ ملعون.

